من حي الزنجيلي / الموصل
إلى حي النصر / بغداد

رواية

ذياب فهد الطائي

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٨/٠٠/٠٠٠٠)

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة

تصميم الغلاف والكتاب: نبيل جادالله

ت: ٠٠٩٦٢٧٩٦٠٥٥٦٩٧ - Jadallah_mex@yahoo.com

توزيــع

الفصل الاول

يحكون في بلادنا عن صاحبي الكثير
حرائق الرصاص في وجناته
وصدره... ووجهه...
لا تشرحوا الأمور!
أنا رأيت جرحه
حدقّت في أبعاده كثيراً...
«قلبي على أطفالنا»
وكل أم تحضن السرير!
يا أصدقاء الراحل البعيد
لا تسألوا: متى يعود؟
لا تسألوا كثيراً
بل اسألوا: متى يستيقظ الرجال؟

محمود درويش

يضفي عمق السكون وحالة الترقب قلقا إضافياً... كانت الاوامر التي استلمها (الفوج) ان نكون مستعدين للحركة الساعة الثالثة فجرا،كنا سبعة جنود في الغرفة الامامية لدار لم نستكشفها بالكامل، الارضية تغطيها سجادة لم اتبين لونها فقد كان الظلام يسد مساحات الرؤية تماما، وزميلي الى جانبي يتنفس بصوت مسموع وقد يكون هذا علامة خوف غامض، الطابق العلوي استكشفه امر الحضيرة ذو الوجه الصارم... قال بانه (آمن)، من الجوانب في الشوارع المجاورة تنطلق بين الحين والاخراصوات خرساء لطلقات متتالية من بندقية كلاشنكوف، ثم يشغل الظلام الذي بدأ يخالطه شحوب حائل، هواجسنا.

حين التحقت بالجيش في العام المنصرم، كنت ابحث عن بديل لسنوات من الضياع في شوارع العاصمة بحثا عن عمل... ابي يتقدم في السن وامي منهكة من اعداد معظم حاجاتنا الغذائية في البيت ومعظم وقتها أمام التنور، لتخفف من الحاجة للنقود.

بكى أبي وأنا أودعه... فيما كانت عيناه تعانقان صورة أخي الأكبر المعلقة على الجدار الكونكريتي بمسمار بارز، زمت أمي شفتيها فيما تجمدت دمعة كبيرة فوق خدها المتغضن، شعرت إنا نستسلم لقدر لا مفر منه!

قال آمر الحضيرة : كونوا مستعدين

أحكمت الخوذة المعدنية... قال الجندي على يميني: سنتحرك.

نسيم مشبع برائحة الدخان انتشر في الغرفة التي اعطتني شعورا مواربا بالامان، نقلت الكلاشنكوف من على كتفي ليستقر بين يدي وشعرت باني أرى افضل

قال امر الحضيرة : فلنتحرك.

فتح العدو البيوت الصغيرة المتلاصقة على بعضها بفتحات كافية للعبور.

قال آمر الحضيرة : لن نتوقف عند العوائل المحاصرة، ستتكفل بهم فرق الانقاذ..

رائحة رطوبة تنتشر ببطء، اعقبتها زخات مطر يصدر صوتاً كئيباً، المطر الصيفي العابر محمل برطوبة تضغط على الجسد وتشعرني بالاختناق.

خيوط الفجر الأولى تمنح المشهد شحوبا حزينا وبدا الخراب لا يصدق، تعثرت بكومة حجارة وصخور جبلية كانت جزءاً من جدار تم نسفه، اندفعت لا إرادياً منحرفاً عن المسار لأدخل غرفة نوم، السرير الخشبي محطم، وعلى الأرض خمسة اشخاص يتكومون برعب متلاصقين ببعضهم، التصقت صبيتان بالأم التي غطت وجهها بالكامل فيما يجلس طفل في الثالثة في حضن الأب، عند اندفاعي المفاجئ اصبح الجميع كتلة متراصة، الطفل وحده يتطلع نحوي، انعكس الخيط الشاحب الذي تسلل

عبر النافذة في عينيه، شدتني دعوة في نظراته فيها رجاء لأقدم له شيئاً... مد يده الصغيرة بكوب معدني فارغ.

حين تقدمت نحوهم تحرك في حضن أبيه محاولا ان يصل بيده إلّي، وضعت في الكوب بضع مكعبات صغيرة من شيكولاتة محلية وأعطيته علبة بسكويت بالسكر، لم يبتسم واكتفى بأخذ الهدية الصغيرة وهز الكوب أمام أختيه.

بدأنا نتقدم بحذر فقد كان العدو قد زرع الطريق بالمتفجرات بطريقة بدائية، ورغم إن الفريق الهندسي قد نظف الممر إلا إن آمر الحضيرة قال: الامر ما زال يحتمل الخطر

رشقات متقطعة من الحضيرة المتقدمة من الفوج ورد العدو بزخات كثيفة من رشاشات متنوعة... وحين تكثف الرمي المتبادل قال جندي الى جانبي... نحن نقترب.

اطلقت طائرة مروحية صاروخا أحدث انفجاره دويا صاخبا وتطاير الحجر الجبلي والآجر في كل اتجاه وانتشر غبار رطب، قال آمر الحضيرة: بدأ التمهيد للاقتحام.

منذ يومين لم نتواجه مع العدو مباشرة، فهو ينسحب مخلفا قتلى وبعض الجرحى وفي الشارع الممتد داخل حي (الزنجيلي) يدفع بانتحاري بسيارة مفخخة تم تصفيحها.

غالباً ما كانت قواتنا المتربصة في البيوت المحررة في الازقة الضيقة تقوم باستهدافها بقذائف كورنيت الموجهة

ويختلط صراخ الفرح الهستيري بصوت ارتطام القطع المتناثرة من السيارة المهاجمة بالجدران على الجانبين.

فرق الانقاذ تتقدم بحذر وهي ترفع الانقاض لتخرج بعض العالقين من سكان الحي او لترفع الجثث التي طمرتها الحجارة والاتربة... اصبح المنظر عاديا تماما ولم اتعرض لردة فعل وانا اشاهد يدا مقطوعة او جثة بلا رأس... بدأ الفجر أكثر جرأة وهو يتدفق من الفتحات المتباعدة قليلا بين السحب المتقطعة والتي تعبر السماء فوق الموصل الى الجنوب، على الارض البيوت المهدمة والحجارة المتناثرة وبضع كلاب سائبة ورائحة الموت التي تنبعث من تحت اكوام الحجارة والجدران الكونكريتية المنهارة والخوف المتجمد في عيون الباقين من سكان حي الزنجيلي يقابله في السماء الغيوم المندفعة بعجالة والفتحات التي تسمح لضوء الفجر بأن يضفي على الارض تتابعا لصور من كابوس مركب لخيال مريض.

في تقدمنا بدأت تتكشف صورة المعارك الشرسة التي خاضتها قوات مكافحة الارهاب، فعلى امتداد الازقة الضيقة كانت تختلط بقايا ادمية لافراد العدو وجنودنا وكانت التعزيزات التي دفعتها الفرقة المدرعة التاسعة قد أسهمت في تصفية جيوب المقاومة للعدو ولكن هذا أوقع عشرات الاصابات بالسكان المدنيين.

تقدمت امامنا مجموعة من العوائل الهاربة من

جحيم المعارك... قال رجل وكانه يقدم تقريراً محايداً ولكن بنبرة محبطة: لقد قتلوا الكثير.

قام العدو بزرع العديد من القناصين المحترفين في أسطح المنازل التي قاومت التدمير... في بيت من الحجر الابيض تتوسطه باحة واسعة، مقاتل منكفئ على وجهه بدا شعره الاشقر غريبا، قطعا من مقاتلي العدو... تقدمت منه ببطئ في حين وقف خلفي جنديان برشاشاتيهما مشرعتين، تفحصت الجسد المدد من كل جوانبه دون ان المسه فقد كان العدو يفخخ جثث جنوده كمصائد، كان سلاحه ملقى على مقربة ويداه تحيطان برأسه فيما خيط من دم كثيف انساب على السيراميك الازرق، حين قلبته شاهدت منظرا مؤلماً... افرغت رصاصة تجويف العين وحطمت مقدمة الجمجمة لتخرج من الرأس... لم استطع التفتيش في جيوبه، تقدم جندي من الخلف وأخرج محفظة جلدية: أبو الخطّاب الشيشاني معاون قائد الشرطة الدينية.

في المحفظة ايضا صورة لإمرأة ترتدي وشاحا أسود حول رأسها، ذات بشرة ناصعة البياض وعينان واسعتان عسليتان، وصورة ثانية لصبي في الثالثة.

فكرت انه تزوج في الموصل بعيداً عن أبويه، ربما ستقتل زوجته ولكن الصبي سيواجه مصيرا بالغ الصعوبة.

تراجعت حدة القصف المركّز لتجمعات العدو وفي

الشارع الرئيس كانت مدرعات صغيرة تتقدم مسرعة لتحكم السيطرة على خطوط التماس المتقدمة.

للمرة الاولى يتجمع فوجنا في مساحة مكشوفة، ورغم شعور الانتصار الطافح على وجوه الجنود فقد كان التعب والاجهاد وساعات الترقب الطويلة، قد ترك انطباعاً قلقاً.

استاذ التسويق تحدث عن المنافسة في السوق ...قال بان الربح او الخسارة رغم انهما متلازمان الا ان ما يجب الانتباه اليه ان ذلك يحتمل نتائج نسبية، الحرب وحدها، الربح والخسارة فيها تعني ان تكون قاتلاً او مقتولاً، تماماً كما في لعبة الشطرنج... الجنود هم من يقتلون... الملك يبقى للنهاية ولكن لا نسبية في الربح او الخسارة.

قال احد الطلاب ولكن قد يتوصل الفريقان الى حل وسط، قال الاستاذ صحيح ولكن بعد ان يقتل الجنود.

الفوج المنتشر قد فقد الكثير من عناصره ولكن انتشار الفرقة التاسعة ساعد على بقائه متماسكا كما إن المروحيات لعبت دورا مهما في تدمير مواقع العدوالمتقدمة، شعرت بان هناك مفارقة في الحشدين المتقاتلين... نحن من معظم مناطق العراق وعلى وجه الخصوص من أبناء الجنوب، والعدو من بلدان مختلفة لم اسمع بها سابقاً... ودار بخلدي تساؤلا عما يريده هؤلاء الغرباء.

الى الحائط كان جندياً يركن بندقيته ويجلس على

الارض العارية ممدداً رجليه، رفع الخوذة المعدنية عن رأسه وتطلع نحوي: هل لديك سيكارة؟

قلت : لا .. أنا لا أدخن.

ابتسم بمرارة أشعرتني بشيء من الحزن.

قال : الغريب اني لم أدخن!!! ولكني أشعر برغبة في ذلك.

لم أجبه وجلست الى جانبه: قال بانه جاء من ناحية السلام... كان يعشق الغناء وكثيرا ما يجلس الى نهر البتيرة ليغني للماء والقصب والطيور التي تحط على الضفاف لتستريح ومن ثم تتابع طيرانها ....حين سألته عن المدرسة، أمسك بخوذته المعدنية وكأنه يتفحصها وأجابني : بعد الابتدائية ....لم اتابع... كان والدي وحيدا وهو بحاجة الى المساعدة في الارض... ولكن الارض هي الاخرى تركتنا فقد اصبح من العبث الاستمرار بزراعتها... بعد سنتين من العطالة ساعدني خالي في التطوع... ارسل كل الراتب الى والدي... هنا لا أحتاج النقود... لم اتعلم كيف اصرفها ولكني تعلمت القتل... في التدريب كان على الدوام هناك عدوا مفترضا عليك ان تقضي عليه... حين دخلنا الزنجيلي تأخرت عن زملائي بسبب مغص حاد في المعدة ...وانا الحق بهم واجهت صبيا في الثانية عشر يوجه بندقيته نحوي،في عينيه كمية من الحقد لم اعتقد ان انسانا يتحمل ثقلها، اندفعت نحوه ولم يخطر ببالي

ان اطلق عليه النار، ضغط على الزناد فانطلقت بضع رصاصات استقرت في الجدار... ضربته بقوة بأخمس البندقية فتهشمت جمجمته وتناثر الدم بكل اتجاه... لم يصرخ.

- هل جربت القتل؟

كان السؤال خال من اية نبرة موحية، كأنه يسأل ان كنت قد تشاجرت مع زميل في لعبة دومينو في مقهى الحي.

- نعم... بضعة عناصر في الجانب الايسر... كنا نطهر الجامعة، وفي جوانب البناية كنا نتبادل الرمي، كنت دائما دقيق التصويب كنت لا اخطئ الطير الذي استهدفه ....لم يكن الامر استثنائيا... ان تقتل عدوك وهو يقابلك بنية قتلك أمر عادي تماما، ولكن الذي ظل في ذاكرتي هوشاب ضئيل الحجم داكن السمرة، كان يقود سيارة مفخخة قفز منها على عجل حين شاهد جنديا يصوب نحوه صاروخ كرونت محمولا على الكتف، كان يهرب مرعوبا، على الرصيف سقط وهو يصرخ بعواء جاف فيما انبثق الدم من صدره خيطا رفيعا، كان نحيلا وحين اقربت منه لاسحبة الى الحائط انفجرت سيارته بفعل الصاروخ الذي رفعها دافعا اياها الى الخلف، في عينيه رعب طاغ وكانت أصابعه الصغيرة تشد على صدره بتشبث يائس فيما تسمع حشرجته الخافتة لهاثا متتابعا،

كان وهو يفارق الحياة يتطلع نحوي بحقد، قال جندي كان يقف خلفي هل تعلم لماذا يكرهك... قلت لأني قتلته... قال لا... كان يتطلع الى ان يرفع مع انفجار السيارة بدون الشعور بالالم او بمغادرة الحياة ليدخل مسرعا الى خيمته في الجنة حيث تنتظره نساؤه... أنت افسدت عليه الدخول السلس.

بدأت الشمس ترتفع وهي تواصل إرسال اشعتها الحارة الى المدينة وقد خلت السماء من أي اثر للغيوم الصيفية الخفيفة.

قال امر الحضيرة: سنستمع الى ملاحظات امر الفوج عن مرحلة ما بعد الظهر ويمكنكم الان استلام تعييناتكم من الطعام والشاي.

وسط الساحة وقف جندي طويل القامة يلوح ببندقيته برشاقة وبعد ان دار حول نفسه مرتين ضرب الارض بحذائه بقوة وتطلع الى الجميع الذين انصتوا مستطلعين.

انثنى الجندي قليلا ثم اعتدل رافعا البندقية وصرخ... ها ها ها، تجمع عدد من الجنود حوله في دائرة، فقد فهموا النداء.

ولد حامي الحميّة اليوم بالميدان
خَلّوا هالزلم تلبس لبس نسوان
ما لبسوا دروع الملبس الأكفان
وردّوهه الكاع المغصوبة

ردد الجميع وهم يرقصون حوله... وردّوهه الكاع المغصوبة.

قال آمر الفوج وهو شاب في الثلاثينيات: القائد العام للقوات المسلحة يهديكم تحياته ويبارك لكم هذا الانجاز... امامنا مهمة أخيرة في حي الزنجيلي، سنتحرك بعد، ساعة، على الجميع فحص اسلحتهم.

بدأت الفرقة التاسعة بقصف مكثف من الدبابات وسمعنا صوت انفجار بضعة صواريخ... الارض تهتز بعنف وارتفعت في الجو سحابات كثيفة من الاتربة والدخان، فكرت ان العودة الى بغداد، حلم مؤجل، تحركنا في خضم المعركة كابوسا لابد من تحمله حتى ساعة الصحوة.

تتمدد المدينه تحت شراع الموت المرتفع وكأنه يقودها بفعل ريح مواتية الى قبر يتسع للجميع، ومن الشرفات المدمرة والتي بدأت تضيؤها شمس تصعد بتثاقل ممل، في شهر مايو يطل صمت صارخ، غير مبال بهدير الدبابات ولا أصوات المدافع وهي تقتحم بقايا البيوت، كان الشيخ في الجامع القريب من بيتنا يشرح في خطبة الجمعة، ولولا دفع الله للناس بعضهم ببعض لفسدت الارض:

وحينما سألت أحد زملائي في الجامعة، وضع يده على لحيته وقال :نعم لفسدت الارض!

قلت: ألم يك من الافضل للبشرية لو ان هذا التدافع وقع بالتي هي أحسن.

قال: ستضيق الارض بمن عليها.

يقول مدرس النظرية الاقتصادية إن الحرب جزء من الطبيعة البشرية والتطور رهين بهذه المرحلة، حين تنتهي..... تكون الاوضاع العامة قد نضجت للتغيير، شعرت اني اختبر هذا التشخيص في صور الدمار الشامل.

بدأت القذائف تتساقط عشوائيا وبكل الاتجاهات وكأن العدو استيقظ الان ليقاتل، واصبح الفضاء المفعم بالدخان والاتربة ودوي القذائف المتفجرة خانقا، لم نلتحم بالعدو فالشوارع الضيقة خالية تماما وخلف كل كومة تراب او أحجار مكومة بعناية كانت قذيفة تنفجر فور تحريكها، كان امر الفوح يحدث ثلاثة من امراء الحضائر بجدية وهو يلوح بيديه، وسرعان ماصدرت الاوامر بالخروج الى الأزقة والاندفاع شمالاً.

حين تفقدت الزمزمية الصغيرة لم اجدها، ناولني جندي حاويته، الدار الصغيرة التي كنت فيها ما زال مطبخها يحتفظ برائحة الثوم والمخلل، ورغم المساحة الضيقة كانت غرفة النوم مرتبة على نحو يشي بان المرأة التي كانت هنا تملك ذوقا رفيعا، الحجارة المنتشرة في المدخل والسياج الملاصق للجيران كان قد فقد نصفه،

اعتقدت اني اسمع صوت تكسر صحن معدني تحت وقع حذائي الثقيل ولكني وانا اتبينه وجدت انه كان (رضاعة طفل) بلاستيكية، شعرت بشيء من المرارة

تمتـزج بطعـم الدخـان والاتربـة.

لـم يعـد العالـم مدنـا ومسـاحات صحراويـة وغابـات ومحيطـات، غـدا هـذه المسـاحة المحصورة في حـي الزنجيلـي، ربمـا بعـد تحريـر الحـي سـينفتح العالـم ثانيـة،

كان ابـي يقـول: العالـم حيـث انـت ! ولـم افهـم في حينـه مـا يقصـده، ولكنـي الان فقـط أدرك مـا كان يعنيـه، ربمـا اقتل هنـا... وربمـا تنتشـر اشـلائي في هـذه المسـاحة المحشـورة بـين السـياج وغرفـة النـوم وقـد لا يصـل إلـي أحـد وأظـل الـى الابـد تحـت الانقـاض التـي لـن ترفع..ويكون العالـم هـو حيـث أنـا.

تباعـدت أصـوات الرماية المعادية وفي السـاعة السادسـة من مسـاء ٤-٧-٢٠١٧ كنا نركن الى حائط مسـجد أسـقطت منارته.

قال آمر الحضيرة: لقد تم تحرير حي الزنجيلي.

تقدمـت فصائـل مـن الشـرطة الاتحاديـة لتسـتقر في مركـز الشـرطة والدوائـر الحكوميـة والمستشـفى والمـدارس، كانـت الابنيـة مهدمـة علـى نحـو مريـع ولـم تكـن هنـاك غـرف في الابنيـة بالمعنـى الـذي نعرفـه، بعضهـا بـلا سـقوف وبعضهـا فقـدت جـداا أو اثنـين، ولكـن وجـود الشـرطة يعنـي وجـود الدولـة بغـض النظـر عـن واقـع البنايـة، كمـا ان رفـع العلـم فـوق تلـك الابنيـة يعـزز رمزيـة تواجـد الحكومـة.

ظـل ابـي المتقاعـد والعاجـز عـن الحركـة يـردد: لقـد

الغى الربيع العربي الدولة ولهذا فالفوضى هي التي تحمي اللصوص.

وترد امي باستمرار: كل شيء بحساب.

بدأ مساء ٤-٧-٢٠١٧ يخيم على حي الزنجيلي ثقيلا وداكنا ، فيما أنين مختلط ينبعث من كل مكان، انين غامض كرجع الصدى يمتد أفقيا في حي الزنجيلي، ويعبر الشوارع والازقة ويقفز فوق الأسطح المكشوفة ويتجاوز العربات المصفحة وهو يلامس الوجوه المعفرة بالتراب والمصبوغة بلون الدخان الذي امتصه عرق القسمات المجهدة.

لم نضع البنادق الى الحائط أو على أكتافنا، كانت ماتزال مشرعة بحالة تأهب فالعدو ما يزال يملك القدرة على دفع بعض عناصره من (الانغماسيين) لمهاجمة مواقعنا.

فرق الانقاذ تخلي الجرحى وتنقل القتلى من تحت الانقاض، بعد العاشرة ليلا بدأ نسيم رخي اخف وطأة يعبر الشوارع ويتمدد في الازقة ويدخل البيوت المشرعة الابواب، جلست قرب جندي استند الى حائط لسياج مهدم، كنت الحظه في فترات الاستراحة او عند تراخي الرمي المتبادل، يخرج كراسا يدون فيه شيئا ما وهو يرسل نظرات تائهة وكأنها تهرب من الواقع المر.

لم يلتفت إلي، كان يكتب في كراسه، شعرت بفضول

لأسأله :هل يكتب الأخ مذكراتا؟

اغلق الكراس نظر إلي، لم تكن نظرته تحمل انطباعا، كانت محايدة.

قال: لا... شعر

شعر..!: لم اتمالك نفسي من تسلط نبرة الاستغراب التي شعرت انها اقرب الى الاستهجان، ولكنه رد بهدوء: نعم شعر.

ولكن: لا تكمل الشعر حالة وليس صناعة وأكتب عن الحرب... عن الجنود وعن القتلى وعن الجرحى وصراخهم، عن الدمار والهمجية.

- شوقتني فهل اسمع شيئاً.

- لا... قوة الشعر في الذكرى.

بدأ اطلاق نار متقطع، وجاءت الاوامر بالاستعداد فقد دفع العدو بعدد من السيارات المصفحة والمفخخة الى مواقعنا رافقها رمي مكثف من مدافع هاون، تمكنت قطعات الصد من تدمير ست سيارات ولكن مدرعة عالية التصفيح اندفعت بسرعة لتضرب دبابة كانت تسد الشارع ....كل ما سمعته هو الانفجار الرهيب وسد الرؤيا امامي دخان اسود كثيف وشعرت اني احلق في فضاء لا متناه، كنت وانا صبي في الابتدائية احلم ليلة الامتحان باني اطير وكانت أمي تقول ستكون الاول وعليك مراجعة ما ذاكرته قبل ان تنام....كانت الرؤيا تتحقق... والى اية

نتيجة أصل اليوم.!!

لم أكن اشعر بألم، واقرب الى احساس مسافر عبر الزمن وبالتاكيد الى مكان دون ملامح: كنت أشعر بالهواء يضرب وجهي بقوة فتنتابني نشوة غريبة .

حين سقطت كان ذلك فوق سطح البيت المجاور، ورغم الذهول الذي افقدني الاحساس باي شيء إلا اني كنت فيما يشبه حالة فوق الحلم، اسمع بوضوح صوت أمي وهي تدعوني أن استيقظ فقد حان وقت الذهاب الى المدرسة، فيما بدأ ضجيج صاخب يسد الفضاء .

سمعت صوتا ينادي على الجنود لرفعي الى سيارة الإسعاف، وشعرت بألم حاد يجتاح جسدي كله، ولكن مفصل الورك كان ينبض على نحو يشعرني باني لم اعد املك نصفي الاسفل، و دفق دافئ يتممد على طول الساق اليسرى يحفظه البنطال العسكري من التسرب ليصل الى قدمي ويستقر في الحذاء السميك.

ينعدم الزمن كتاريخ او مرحلة او حتى احساس حينما يستغرق الانسان بنوبة اغماء ولكنه يظل على صلة بالحياة وكانها مقطع سينمائي عابر، قال لي الجندي الذي كان يغير عبوة الدم.. لقد تجاوزت الخطر.

- شكراً...

كان صوتي يطرق مسامعي وكأنه قادم من بئر يتسلقها مترنحا بين جوانبها الحجرية فيفقد الكثير

من خصوصية نبرته ويصبح أجوفا وكأنه يماثل الارتفاع الاسطواني للبئر.

- لقد كنت تضحك!... وكأنك بلا آلام.

لم اجبه ولكني تذكرت اني فعلا كنت اضحك.... كانت جارتنا ام حيدر تجلس الى سرير ابنها الذي تعرض لبتر ساقه بسبب انفجار في مركز شرطة... كان حيدر الشرطي المكلف بحراسة الباب الرئيس:

مو كتلك ي يمه ما تقيديش .....طلابة حكومة وما تفليش

لقد فكرت بالكثير من الاشياء ولكني لم افكر بالموت، حتى اني لم استحضره كحالة ممكنة رغم انه موضوعيا يجب ان يكون الاقرب الى ذهني، لقد شاهدت الكثير من الاجساد تتحول الى اشلاء وهي تطير في الهواء ....هل كانوا يفكرون بالموت..؟

قال الجندي الذي يتولى تمريضي :يجب ان تشكر الله على نجاتك، لقد استشهد الجندي الذي كان يجلس الى جانبك، عندك الكثير من الكسور والرضوض ولكنا نقول انها في الريش... هل سمعت بهذا المثل... حسنا الريش يعود ثانية لينمو وكسورك ستشفى لتعود ثانية الى الحياة... هل انت متزوج؟

كان يتكلم بمواصلة اتعبتني فلم أجبه واغمضت عيني فيما كانت الغرفة المعزولة بستائر ربما كان لها في يوم ما

لون، تتصاعد فيها روائح أدوية مختلفة وتتعرض لدخول اصوات مختلطة لمرضى وممرضين، عالم لا صلة له بعوالمي التي عبرتها منذ فتحت عيني على الدنيا وحتى يوم إنتسابي للجيش كمتطوع يبحث عن الوظيفة والراتب... بعدان انهيت دراسة الاقتصاد في كلية الاداب كنت اشعر باني سأسهم في تخطي الفوضى التي تدور حولنا في العراق الذي أسموه جديدا وعلى نحو يعبر عن هويتي وانتمائي وكل ما درسته في مادة النظرية الاقتصادية، ولكني ما أن وقفت في الصف في ساحة العرضات لأرمي نحو شواخص الاهداف شعرت بأنني بلا هوية شخصية فانا أتحرك مع الاخرين بهدف تمت صناعته بعيدا عنا وان ما نفعله هو حركة جماعية لا خصوصية مميزة فيها، حركة لا عقلانية لانها تحمل في بنيتها تناقضات متعارضة، الجيش يحارب لطرد العدو وترصد الحكومة الكثير للرواتب وللأسلحة والموتى وايضا الجرحى، وفي المدن اعشاش تفقس كل نهار اشكالا من الفساد الذي يمارسه الساسة والعديد من القيادات الجديدة.

فكرت انه لابد ان ينتهي الامر بانتصار احد هذين التوجهين والامر يتوقف على الايمان بالانسان كقيمة بذاتها لتحديد من هو الذي سيفوز، كان زميلي في الجامعة والذي كنا نسميه للدعابة عادل استراتيجي، يقول ان التوجهين متلازمان، فالفساد يبحث عن غطاء

والحرب هي الغطاء الملائم وانتهاء احدهما على نحو جاد سينهي الاخر.

عاد الممرض ثانية منتهزاً فرصة تطلعي الى جدران الخيمة ليقول:تم تطهير الحي بالكامل والمشكلة الان هي سحب الجثث من تحت الانقاض، بعضها لسكان حي الزنجيلي الذين رفضوا المغادرة، وبعضها للدواعش الذين تشبثوا بمواقعهم بانتظار الانتقال الى مساكنهم الجديدة مع الحور، كانوا على عجلة يعمدون الى تقليص المسافات، ولهذا يواجهون جنودنا مكشوفين.

لم أرد...

قال: ستكون مع المجموعة التي سيتم اخلائها الى المستشفى... ستتماثل كسورك للشفاء وستتذكر هذه الايام.

كنت اشعر بحزن قابض وانا أتطلع الى سقف الخيمة ورائحة الدواء تبعث في نفسي احساسا بالوحدة لانها كانت تسد عليّ القدرة على التخيل، فيما الأوجاع التي بدأت تشتد تملأني قنوطا.

عدت ثانية الى الذكريات فهي الجزء الذي أملكه من حياتي اليوم، كانت أمي في المطبخ وعندما أعود جائعا من المدرسة أنطلق بوصف كل الساعات التي غادرت بها البيت... الساقية الصغيرة امام البيت والتي تحتفي في البستان المجاور وسباب التلاميذ ودرس الرياضة المسلي

ومعلم الدين الذي كان يحدثنا عن الدولة العثمانية ونكات متفرقة فيما اخالس امي لاتناول قليلا من الخبز او حبات التمر...وينادیني ابي...

- شاكر تعال هنا دع أمك تنهي الطبيخ.

- وهي ترد عليه: دعه يسرد فحديثه يسليني.

أمي كانت تعرف السرد الذي قرأت عنه بعد سنوات في مجلة الثقافة الجديدة، الذكريات هي الخصوصية، وحتى الذكريات المشتركة فيها جوانب شخصية ضيقة،ويمكن ان اقول انها الهوية الحقيقية لأي منا والتي لا يمكن ان تضيع في تداخل العلاقات في المجتمع.

تزايدت اعداد الجرحى الذين استهدفهم العدو وهم يحاولون الفرار ...بعض الاطفال يملأهم الخوف وهم يتشبثون برداء الأب أو الام، المسجى على سرير حديدي أو على الارض، قربي كان طفلان تجمدت نظراتها فيما إحباط يخنق أية مشاعر للطفولة على وجهيهما، مددت لهما بتفاحتين من طعامي الذي يقدمه المستشفى الميداني، شعرت بانهما جائعان ولكن أي منهما لم يمد يده، فكرت انه لو كان بمقدوري ان أنهض لقبلتهما، كانت الأم بحاله هلع هستيري وتصرخ من آلام حادة في الظهر بسبب طلق ناري، قلت للممرض أن يعطيهما التفاحتين فقد يقبلان.

- قال: نعم

كان الممرض يرتدي رداء أبيض، وحين قدم لهما

التفاحتين اخذاهما بالية وكانهما ينفذان أمراً، بدأ الصغير بقضم تفاحته بهدوء.

داخلني شعور بالغضب وأنا أشاهد الخراب الذي حل كنازلة عمياء على المدينة التي غدت أكواما من الحجارة، وبقايا جدران كشفت عن أسرار البيوت وهي تعرض بقايا من اسرة مقلوبة وفرش نصف محترقة، ولن تستطيع سعاد ان تصعد الدرج برجلها المحناة فقد وفر عليها القصف المتبادل تهديم السطح، اشهر طويلة ونحن نتقدم ببطء بأشكال من الاسلحة والطائرات وبمعاونة من طيران التحالف، والعدو ليس الا بضعة آلاف لايعرفون المدينة، فكيف اذا قاموا باحتلالها وطرد مئات الالاف من الجنود والشرطة مدججين بالسلاح!!!.

كانت سيارة الاسعاف تسير ببطء لتتفادى الحفر التي أحدثها القصف المدفعي، و رغم ذلك كانت الام حادة تمزقني، ربطوا الساق الى خشبتين على امتدادها ليكون ثابتا حتى نصل الى المستشفي في القيارة ليقوموا بتجبيرها، أما الحوض فقد ربطوه بخشبة عريضة تمتد حتى منتصف الظهر، وشعرت بان ظهري يتقيح فقد ظل بلا تنظيف او غسل لأكثر من عشرة ايام في صيف لاهب وغبار لا ينفك يملئ الاجواء ويتخلل الى كل الجسد الناضح بالرطوبة، ويتسرب مع الهواء الذي نستنشقه الى الرئتين، كنت اشعر اني مثقل بالغبار.

توقفنا عند الجسر العسكري الذي نصبه سلاح الهندسة لتأمين مرور العربات العسكرية والاليات وافواج الهاربين من المدنيين عبر ما يسمى بالممر الامن، كانت شاحنة عسكرية تنقل دبابة خفيفة قد تعرضت لاصابة مباشر بالعجلة الامامية اوقفتها في منتصف الجسر وقطعت حركة العبور، وتعمل فرق الصاينة الهندسية على اصلاح الضرر .

كان الالم الذي تسببه حركة السيارة وهي تعبر الحفر او تضطر للسير فوق الحجارة المتناثرة، لا يطاق، في فمي قطعة قماش اكز عليها باسناني لأمنع نفسي من الصراخ، وكان ما يضاعف الالم التوقف المفاجئ للسائق بسبب إختناق الشارع بالعربات العسكرية وكون السائق، كما يبدو، تحت التمرين.

قال الممرض المرافق: اشعر بمعاناتك ولكني لا استطيع ان افعل شيئا، لقد اعطيتك اقوى المسكنات التي معي.

لم استطع التعليق وبدأت السيارة بعبور الجسر الهندسي وهي تتأرجح مما يزيد من الالم الذي يمزقني الى درجة لاتطاق وشعرت ان فكي سيتحطمان جراء الاطباق على قطعة القماش في فمي.

قال الممرض: يمكنك ان تصرخ فقد يريحك ذلك، كما ان احدا لن يسمعك...

التفّت السيارة يسارا لتنزل الى القيارة، لم اسمع صوتا وكأنا انقطعنا عن الدنيا تماما فيما تكاثفت الظلمة إلا من إنارة مصباح إنارة صغير بدى ضوؤه مشعا، الطريق الان اكثر سلاسة فقد تقلصت الحفر وانعدمت الحجارة.

وصلنا الى المستشفى بوقت متأخر وسمعت السائق يقول انه يحمل حالة حرجة ومستعجلة.

اعطوني مخدرا لتخفيف الالم ولأستطيع النوم حتى الصباح بانتظار الدكتور الجراح ليقرر الاجراء المناسب.

مرت بي ليلة كنت انتقل فيها من كابوس الى ذكرى بعيدة، كم هي لاعقلانية الاحلام التي تراودنا.

امي في الطريق الى المدرسة وابي يسبح في شط العرب وبساتين ابو الخصيب يسكنها غول شردّ السكان، وفي أزقة الموصل بضع فتيات يهربن متسلقات الجدران المهدمة وعباءة احداهن اخذها الهواء الذي يضحك بغباء... كيف لي ان ألاحق تتابع الصور وقد بدأ الألم يعود على نحو قاس.

الدكتور الجراح يقف فوق رأسي فيما يشق ممرض البنطال العسكري الملتصق بالشاش الذي يربط الخشبتين على امتداد الساق.

قال الدكتور إن الساق مهشمة تماما وليس أمامنا الى أن نقوم ببترها سيما ان الساق تعاني من بداية ما يعرف (غرغرينا جافة)... سألني ما اذا شعرت بخدر في

الساق... كيف ساواجة امي... اتقدم نحوها بقدم واحدة وعلى عكازة بدلا من الساق الثانية... كيف ساواجه الحياة... أي عمل يمكن أن أمارسه... ذهبت في إغفاءة عميقة تحت تاثير المخدر.

اعطاني جندي ينام الى جانبي هاتفه... قلت لجيراننا في بغداد اني بخير وسأتأخر وطمنوا امي وابي الى اني ساكون معهم قريبا ...ارسلت لهم مع صلاح مبلغا من المال ارجو ان يكونا قد استلماه...صرخت فتاة في البيت: قالت ام شاكر انهم استلموا المبلغ.

بعد اسبوع من المعاناة، خفّت الالام وبدأ الجرح بالالتحام، قال الدكتور: انك تتعافى بسرعة... شباب. !

أغمضت عيني متعبا... كان حي الزنجيلي ليلا تسكنه شياطين ممسوخة تتقافز بين الشرفات المفتوحة واكوام الحجارة والمنعطفات، لم تك تصدر صوتا لتحافظ على سكون الصمت المعرّش كظلال موحشة فيما تتحرك كلاب سائبة بين الانقاض تختار ما تتناوله وقد تحولت الى حيوانات وحشية شديدة الخطورة تتجول دونما خوف وقد تخلت تماما عن طاعتها أو أية مظاهر للخضوع وقد اطمأنت تماما الى انها لن تقابل اي من رعاتها القدامى فقد شاهدت هجرتهم وتأكدت من انهم لن يعودوا.

في النهار يبدو الحي خرابا وكأنه مقبرة مهجورة انفتحت قبورها التي بدت مكتظة بالموتى الذين لم

تستطع شمس الربيع أن تكشف عن وجوههم... في ذات الشوارع كان الاطفال يتدافعون بمرح طفولي وهم يدرجون الى مدارسهم وكانت العربات تنقل الموظفين والنساء الخارجات للتبضع، لم يكن شياطين الموت الذي افترش الطرقات قد ظهرت بعد، كن يساومن الباعة على السعر ويحاولن ان يحصلن على افضل السلع... الاطفال اليوم يسكنهم خوف يلازمهم في احلامهم، والنساء يقضمن الخبز الجاف الذي تقدمه مجموعات الاعانة الدولية .

قال الطبيب: ستغادرنا اليوم.

الفصل الثاني

لا تتجنب خوض التجارب الصعبة..

فهي معلم رائع

(جلال الدين الرومي)

شـهقت أمـي وهـي تفتـح البـاب، كان ظهـوري مفاجئـا لهـا، في عينيهـا ترقرقـت دمـوع الفـرح، فتحـت ذراعيهـا كـي تضمنـي ولكنهـا تراجعـت وهـي تلحـظ العـكاز في يـدي اليسـرى، تجمـد الدمـع وأطـل جـزع عميـق الحـزن، تصلبـت عضـلات وجههـا، ظلـت يداهـا الممدودتـان معلقتـين في الهـواء وبـدت عروقهمـا نافـرة، فيمـا لاح لـي ان الجلابيـة السـوداء التـي ترتديهـا والملطخـة ببقايـا الطحـين كانـت شـراعا ربمـا سـيرفعها الـى سـطح البيـت .

أغمضـت عينيهـا ولطمـت وجههـا بشـدة، خمنـت انهـا رأت سـاق البنطـال اليسـرى فارغـة... وتحـت أبطـي عـكازة، لـم تحتضنـي كعادتهـا بـل تراجعـت الـى الخلـف وهـي تمسـك بضرفـة البـاب.

كان أبـي يجلس علـى كرسـي مـن جريـد النخـل يعتـز بـه، تحـت قدميـة ترقـد قطـة عجـوز مغمضـة العينـين ويبـدو هـو بنصـف إغماضـة يداعبـه نعـاس خفيـف ممـا يلـح علـى الكبـار في السـن... قالـت أمـي: ابـو غـازي، لقـد عـاد شـاكر.

فتـح عينيـه ونهـض متكئـاً علـى ذراعـي الكرسـي الـذي اصـدر صريـراً حـاداً، لـم يلحـظ في عتمـة الغرفـة أنـي اسـتند الـى العـكاز وأحتضننـي بقـوة وهـو يشـكر اللّه علـى عودتـي.

قالت أمي: إنتبه إنه يقف على العكاز.

تراجع قليلا وقال: هل لديك إصابة في ساقك.؟

- نعم

- لا بأس ستشفى

أطلقت أمي تنهيدة عميقة وقالت (إن شاء اللّٰه)...

وأنا اجلس لحظ أبي إن ساق البنطال فارغة، تقلصت عضلات وجهه وزم شفتيه كأنه يحبس دفقاً من الكلمات، فيما شبك يديه على صدره بحركة احباط مستسلمة، نظر الى صورة أخي المعلقة على الحائط وهو يبتسم على نحو يوحي بأنه يفكر في أمر ما ....حين غادرت البيت كانت الابتسامة تحمل أبعادا متناقضة، أما اليوم فهي ترسم بعدا واحدا يحمل همّ التفكير في "كيف سنواجه الحياة".

كانت أمي تداري خيبة أمل عميقة كنت أقرأ في عينيها المسار الذي كانت تأمله لحياتي حين أعود.

*****

كان غازي إبني البكر هادئ الطباع يميل الى التفكير وقليلا ما يشارك الأطفال في العابهم بعد العودة من المدرسة، في مساء صيفي حار تشيع فيه رطوبة تضغط على الانفاس عاد غازي من لقاء مع أحد أصدقائه، في عينيه نظرة غريبة يختلط فيها خوف وترقب قلت له: ماذا لديك.؟

قال: لا شيء

-وماذا في جيب البنطال.؟

- أوراق للمراجعة.

لـم أقتنـع، مـددت يـدي ولكنـه رفـض ان يسـمح لـي بالاطـلاع عليهـا فيمـا ارتجفـت يـده التـي تقبـض علـى جيبـه المنتفـخ بـالأوراق.

- غـازي لـن تدخـل البيـت اذا لـم اطّلـع علـى مـا في جيبـك.

كانـت الاوراق نسـخاً مطبوعـة بحـروف كبيرة، في الأعلى كان العنـوان العريـض (بيـان الحزب الشـيوعي العراقي).

شعرت برجفة، كنت في نهاية المرحلة للدراسة الابتدائية حـين إقتحمـت الشـرطة وبعـض المدنيـين مدرسـتنا ليسـحبوا معلمـة التاريـخ مـن شـعرها أمـام المعلمـات والطالبـات، وهـم يوسـعوها ضربـا ويصرخـون - شـيوعية قـذرة، لـن نسـحلكم ولكنـا سـنقطعكم ونرميكم للكلاب في مديريـة الامـن.

كان منظـراً مرعبـاً بقيـت أراه في منامـي، كان ذلـك في عـام ١٩٧٥، ولـم أجـرؤ علـى السـؤال مـاذا يعنـي (شـيوعية) ولكنـي ربطـت بينهـا وبـين التعـرض لعقوبـات قاسـية وغيـر انسـانية.

اسـتعدت المنظـر الـذي مضـت عليـه سـنوات طويلـة، شـعرت بخـوف طـاغ تسـبب في قشـعريرة خضـت جسـدي، فيمـا ظـل غـازي ينظـر نحـوي بهـدوء وينتظـر ان أعيـد لـه الاوراق، كنـت اقبـض عليهـا بقـوة وكأنـي أخشـى ان تطيـر وان تندفـع الـى الشـارع ليقرأهـا الجميـع وليشـهدوا مـا سـتقوم بـه الحكومـة.

قال غازي: هذه المنشورات أمانة فلا تتسببي بإحراجي.

عرفت لاحقاً انه يقوم بتوزيع بيانات الحزب الشيوعي ليلاً، لكني لم أخبر أباه فقد كنت أخشى من سرعة غضبه.

كنت أنام على الجمر (كما يقال) ليليا وفي النهار أعيش حالة إنتظار دائم... حين يذهب الى المدرسة وحين يقوم بزياراته المنتظمة الى زميله في مدينة الحرية، وحتى حينما يخلو الى نفسه في غرفته الصغيرة، حين ينام أدخل خلسة لأعرف ما كان يقرأ... كانت الكتب الصغيرة بأوراقها المهترئة تبعث في نفسي الخوف.

كان أبو غازي يتطلع الى الصورة المعلقة فيما ران على محياه هّم محبط يترسب ببطئ في مشاعره فتتيه نظراته وهو ينتقل بنظره الى شاكر الذي تتدلى ساق البنطال خالية والى جانبه عكازه الخشبي، فيما كان شاكر يجلس صامتا محاولا ان يعطينا الفرصة لنستوعب الموقف الجديد..

تطلعت أنا ايضا الى الصورة الشاخصة على الحائط، بعد اسبوع من اختفائه، عندما أعلمنا زميله صالح بأنه تم اعتقاله وهو يوزع منشورا في أزقة مدينة الحرية... مرت ليال صعبة وأيام ملأى بالعذابات وانا ابحث في مراكز الشرطة ومديرية الامن ومقرات حزب البعث...

كنت استلم إجابة موحدة "لا نعرف شيئا عن ابنك؟"... وأخيراً قيل لي يمكن ان اراجع مستشفى مدينة الطب... كان اخر دينار في بيتنا... في المستشفى قالوا بأن عليّ ان أدفع ثلاثين ديناراً لاستلام الجثة... لم نقم له عزاء وتبرع الجامع بنقلة الى المقبرة، اشترط إمام الجامع ان لا نتحدث بذلك مع أحد... لحظت ان غازي مرت على محياه مسحة رضى وهو يشاهد اخيه يجلس على ذات الكرسي الذي كان يستخدمه وهو يقرأ بأوراقه المحرمة .

بحدس الأم كنت أدرك ان الكارثة قادمة لامحالة، ولكني كنت عاجزة ان افعل اي شيء، وكان ابو غازي يعاني من التهابات حادة في المفاصل تشتد علية ليلا فلا يجد للنوم سبيلا، سيكون الحمل ثقيلا ولن يكفي عملي أمام التنور طوال النهار... كان عشاؤنا في معظم الايام الخبز المتبقي بسبب عزوف الناس عن شرائه بسبب تعرضه للحرق في التنور لعجزي احيانا عن التقاطه في الوقت المناسب.

قال شاكر: ساذهب اولاً الى دائرة الصحة العسكرية لطلب ساق صناعية فقد يسمح لي ذلك بحرية اكبر في الحركة.

لم أتماسك جرت دمعتان شعرت بهما تتدحرجان بخط يشع حرارة.

*****

وانا أضع العكازة في المقاعد الخلفية لسيارة الاجرة واجلس الى جانب السائق، كانت امي ترمقني بنظرة حزينة وهي تنحني لتلصق رغيف الخبز في التنور، شعرت باني مذنب تم مسكه بالجرم المشهود فتقلصت ملامح وجهي بحدة وبخليط من توتر عاطفي فانا احب امي، وأنا وغازي لم نعطها غير القلق والخوف وخيبة الامل، حين غادرت البيت لألتحق بوحدتي العسكرية وقفت ترمقني باعجاب.

قالت: عروستك بانتظارك، سأرقص بعرسك كما لم ترني من قبل وستملأ البيت اطفالاً.

كنت في طريقي الى الطبابة العسكرية، شعرت وانا ابذل جهدا مضنيا لأدخل الى جانب السائق، بأني يحمل بعضي بعضي، حاول السائق مساعدتي الا إني رفضت فعلّي ان اتمرن على الاعتماد على نفسي، وضعت الملف الذي يحتوي الاوراق الرسمية التي ساقدمها، كان الملف يتضخم كلما غادرت وحدة صحية، حين نقلت الى اخلاء وحدة الميدان الصحية، كنت في شبه غيبوبة بسبب النزف الذي استمر لساعات طويلة، قيل لي انهم بذلوا جهداً مضنياً لإيقاف النزف سيما وان الطبيب الذي يشرف على وحدة الميدان اصيب بانهيار بسبب ضغط العمل، وتولى العلاج مساعد طبي، حين افقت قدرت كم كان الرجل شجاعاً.

بعد يومين نقلت الى مستشفى ميداني متقدم كان قد أقيم على عجل، في المستشفى كنت اسمع اصوات الانفجارات وأرى البريق الخاطف لقذائف المدفعية، كان العدو شرسا، وفي قناعته انه سيذهب الى الجنة ولهذا فقد كان متمترسا بكل عنفوان التطرف العقائدي.

وفي المستشفى تم بتر ساقي اليسرى.

قال الطبيب: أنت تواجه خطر الغرغرينا.

قلت: يمكنك ان تعمل ما تعتقده مناسباً، انا في غير وارد اتخاذ قرار.

حين صحوت دار في مخيلتي أن أرى ساقي المبتورة، ولكني لم أستطع ذلك، في اليوم الثالث تيقنت اني فقدت بعضا مني، كانت مشاعري خليطا من الاستغراب والأسف الممزوج بمرارة إن هذا الفقدان لن يعوض.

فضلت متابعة الساق الصناعية على المراجعة لمستحقاتي المالية والراتب التقاعدي، عرفت ان امي فهمت السبب، كان ذلك في نظرتها وهي ترمقني وانا أرتب أوراقي مساء اليوم السابق، ابي لم يبد عليه انه مهتم بكل ما يجري، كان ينتظرني، ودهمته المفاجأة فصمت كمن يبحث عن سر يشغله في عوالم غير مرئية.

كانت ساقي التي تركتني ربما أكلتها قطط وكلاب الموصل السائبة والتي فقدت كل أمل برعاية إنسانية... قد يبدو هذا التفكير حافة الجنون، ولكنه قطعاً لا يمكن

ان يصل الى الجنون الذي يتملك العدو والذي يدفع به الى مواجهة النيران الزاحفة حد مواقع تمترسه أو ان يضغط مختاراً على زر التفجير ليتطاير في الهواء.

لم نكن بعد قد وصلنا ساحة التحرير حين دوى انفجار هائل، توقف السائق فيما ارتطمت عشرات العجلات ببعضها، شعرت بألم طاغ حين اصطدم المتبقي من ساقي الهاربة برفرف السيارة وتخيلت ان نصب ساحة التحرير تتطاير سادة الفضاء بحركة إحتجاجية صاخبة، الموت يتمدد في كل مكان في الجبهات الشمالية وفي بغداد، وكأنه يمارس لعبة لإختبار الصبر والمطاولة، وفي المدن التي لا يستخدم فيها المتفجرات والمدفعية وغارات الطائرات فانه ينوّع في فعاليته بالاسلحة الكاتمة للصوت.

السيارات المتكدسة على جانبي شارع السعدون تصدر عنها اصوت تمثل فوضى ما يجري، حيث تختلط أصوات غناء ديني حزين ونواح شعبي يبكي بحرقة وملانسات السائقين وهم يتشاتمون عابرين الموت الذي عرّش في ساحة الطيران.. من محل للأشرطة على الشارع ينطلق مغن بصوت رخيم واسع.

- ولك يا ريل... صيح بقهر.

- صيحة عشك... يا ريل.

يضرب صاحب محل الأشرطة كفيه ويدلف ليسكت الشريط.

قال السائق: بأي وجه صبحّنا اليوم...!

لم أشعر بحساسية قلت: كله مقسوم.

- نعم ولكن ألن تتعدل هذه القسمة.

- يمكن إذا تجمعنا موحدين فالقسمة مسببة.

- لا ادري، ولكن هذه الحياة تحكمها اشباح الموت.

مرقت سيارات الاسعاف وهي تطلق أبواقها على نحو متصل، تتخاطف مصابيحها الملونة ضوء الشمس المتسلل عبر البنايات الشاهقة ويصبح المشهد بجملته كأنه لقطة سينمائية لمخرج خدع امريكية. .

قال السائق: نحن في آخر الزمان ولو كان البغدادي أعورا لتحققت النبوءة، هل تعتقد انه يمكن ان يكون الدجال بعينين سليمتين.؟

لزمت صمتا حذرا، ففي ساحة هذا الحديث تختبئ الشيا طين، قد يكون بعضها صغيرا ولكنه ممتلئ بالخبث، كان مدرس التاريخ يقول وهو يخرج عن السياق لموضوعه على نحو ملفت للنظر (لا تتحدث مع غريب بالدين او السياسية) ويضيف للنكتة (وبالطبع للمرأة أيضا)

كانت القصص التي تصلنا عن التصفيات على الهوية او الايقاع، بسؤال ملتبس تؤكد صحة نظرية استاذنا.

وعلى قدر ما أ تذكر، فان لأخي غازي رأيا أكثر تشددا فقد كان لا يشارك بأي حديث سياسي علني في

المقهى أو على ناصية الشارع، أما الدين فقد كان يحرص وبعناية على عدم التطرق له، وفي تعليق له على كتاب قديم، كتب (تظل ثوابت الايمان الاسلامي على وجه الخصوص غير خاضعة للنقاش المنتج)، وحين نضجت وتوسعت قراءاتي في الجامعة، كنت اعجب من قدرته على وضع الدين في منطقة محايدة على نحو مطلق، في حين ان الماركسية التي كان يحمل الواحها بين ضلوعة تقف في جانبها الفلسفي ضد المثالية.

قال السائق: نتوكل على الله.

بدأت السيارات بالتحرك ببطء، تجاوز قائدو المركبات كل اسباب الخلاف التي فجرت سيلاً من العبارات النابية والقاسية، وكأن كل ما مر هو فعلاً مشهد في فيلم امريكي للاثارة، حين أدار السائق مفتاح المذياع في سيارته كانت إذاعة بغداد تنهي اغنية حماسية لتذيع خبر التفجير في ساحة الطيران، ولم ينس المذيع ان يؤكد... انه استشهد في الهجوم البربري اربعة عشر مواطناً وجرح خمسة وثلاثين من العمال المتجمعين بانتظار فرصة عمل وثلاثة من المارة.

فكرت لو انا سلكنا طريق ساحة الطيران لكنا اعداداً في المجموعة التي اعلنها راديو بغداد.

بدأت شمس آب ترتفع مجتاحة الشوارع العريضة التي ضاقت بالسيارات، وتغلغلت في الازقة الضيقة الرطبة

جراء المياه الساقطة من مجاري البيوت والشقق.

داخل السيارة كان للشمس ولآب فعل آخر معي، فقد بدءا يضغطان على جسدي لينز عرقاً، وبدأ تكور ساقي من المكان الذي هربت منه يعاني من خدر وتنمّل، يلح عليّ بان اتذكر بعضي الذي تركني ولا أعرف اين هو الآن.

اعتذر السائق بخجل لأن محرك زجاج النوافذ اليدوي معطل.

-انت ترى إنا شبه عاطلين عن العمل بسبب الزحام والعطل وقطع الشوارع، ما أحصل عليه لا يكفي الخبز .

تذكرت أمي وهي أمام التنور مكشوفة لشمس آب وللهب التنور، وشيلتها وصدر جلابيتها السوداء ملطخان بالطحين وببقايا العجين...انها ايضا تعمل من أجل الخبز، تحسست الملف .

على الجدار لقاعدة الجسر الذي يرتبط بجسر السنك، هناك العشرات من اليافطات السوداء تحمل اعلانات موت اشخاص مختلفين في المعارك، لم اعرف احدا منهم، في الزنجيلي سقط العديد من زملائي، كان نثار الدم يغطي ملابسي ولكني لم أكن افكر بالموت، كنت أفكر بالهدف التالي، فحين يسكن الموت معك فانه لا يشغلك كثيراً..

لم أشاهد العدو وهو يواجه الموت الذي يحمله، كنا

نسكن في ظلاله، ولكن ما شاهدته اشلاء متناثرة، اما الوجوه حيث يمكن ان تقرأ عليها ما يختبئ في حنايا الانسان فقد فقدت ملامحها تماماً .

كنا نتعايش في دكنة ينبئ عن وجددنا فيها حرارة الانفاس، وحين نخرج للضوء فانا نفترق ويربط بيننا هدير الدبابات واطلاقات المدفعية التي تطوي المسافات لتستقر بديلا عن الجدران التي يتحصن فيها العدو.

يبدو الامر وكإننا قادمون من زمانين مختلفين رغم إنا نستخدم المعدات وأدوات القتل التي تنتمي الى الحاضر، في الصور التي رأيتها على التلفاز لمجموعات من العدو وهي تذبح أسراها كنت أعود بفكري الى عمق التاريخ العراقي حيث يحسم الخلاف بالذبح وحيث يقررون "نحن وحدنا" في حين نحاول ان ننتمي الى هذا الحاضر بكل تناقضاته وتباياناته ولكن ما يطرحه العدو، أن يظل يحمل هاجس الموت، لأنه يحملهم الى الجنة، أما نحن في الجهة المقابلة فلا سبيل امامنا الا قتلهم، هذا القتل بتفويض من الدولة بكل مؤسساتها اي اننا نعمل بقانون نشر في الجريدة الرسمية التي قرأوها كما أظن.

بدأ العرق ينساب الى عيني فتناولت بضع اوراق من الكارتون الملصق أمامي.

قال السائق: لم يتبق الا القليل.

لم أرد عليه وتشاغلت بمسح وجهي، فوق جسر

السنك توقف السير كلية، كانت سيارة قد تعطلت ونزل السائق الذي بد ا عليه انه موظف قد تأخر عن الداوام، رمي قميصه الخفيف وفتح غطاء المحرك، شتم الحكومة والمعارضة وامريكا وايران ووضع يديه حول خصره وصرخ:لقد اتلفت الحرارة المحرك... هل من شريف يعلمني ماذا افعل..؟

لم يتحرك احد، كان ركاب السيارات على الجانبين يرمقونه بلا مبالاة، التفت سائق السيارة التي استقلها.

قال: ارجو ان تسمح لي.

لم أفهم ما يقصد فقد ترك الجملة معلقة ونزل متجها نحو السيارة العاطلة، دار حديث قصير بينهما .

*****

أوقف السيارات النازلة الى شارع الرشيد وبدأ يتحرك ببطئ مناوراً للتقدم، ربط السيارة العاطلة وقطرها حتي نهاية مقترب الجسر وساعد سائقها بركنها جانبا

شعرت ان حرباً من طراز آخر بدأت أخوض غمارها بساق واحدة، وما يتوجب هو ان ادرس جيداً معطيات هذه الحرب ووضع الخطط المناسبة، حينما نقدم على مرحلة جديدة فسنقوم بوضع الخطوط العريضة لمساراتها محددين نقاط الانتقال.

حوم فوق دجلة طائرا نورس، سقط احدهما عموديا الى الماء، راقبته وهو يلتقط سمكة صغيرة، توقف الثاني

فوق صفحة الماء الساكنة وضم جناحيه ساقطا بسرعة مدهشة وغاص لثوان ولكنه خرج خالي الوفاض .

قال السائق: متى ستختلف ايامنا، اعني ان يكون لكل نهار لون خاص.

*****

كانت أم غازي الواقفة على التنور تستعيد احلامها، مأخوذة بالزي العسكري الذي دخل فيه شاكر الى البيت عصر يوم شتائي بارد، كان شاكر طويل القامة دقيق الملامح تختبئ في عينيه شديدتا السواد ومضة غامضة، وكان في ملابسه الجديدة يخطر مزهوا، من ستكون عروس شاكر، هذا ما ملأ فكرها وهي تستعرض فتيات الحي، ربما ابنة (قند) فهي مثل امها بضة بيضاء ناعمة... حلاوة ربانية.. تركت الدراسة الثانوية لتساعد امها في العمل... كانت الام قد وجدت طريقاً لتلبية احتياجات بعض العوائل التي ليس لديها وقت كاف للطبيخ...شعرت ام غازي بشيء من الحرج وهي تنسى غازي تماما... الأمل اكبر من الاحزان... ولكن بالساق الهاربة من شاكر تكبر الاحزان، زمت شفتيها بعد ان ملأت خياشيمها رائحة الخبز المحترق .

في الداخل كان ابوغازي يشعر بغربة وهو يتطلع حوله وكأن المكان قد تغيرت ملامحه...فصل من عمله بعد اعتقال غازي، جرب عددا من الاعمال الشاقة فهو

لم يكن يحسن عملا معينا ولا حرفة رائجة، كانت رؤية المكان الخالي للساق الهاربة قد اصابه بذهول اقرب لحالة غيبوبة... في ذهنة يتداخل غبش الفجر الصيفي الباهت مع ظلمة المساء الخفيفة، فيما رؤى ملتبسه تتراقص في ذاكرته.

*****

هنا كان يكركر غازي، كنت اشعر بنشوة غامرة بعد ان اشترينا البيت الصغير وتركنا الكوخ الذي كانت تسكنه رائحة عطنة حين ينسد مجرى المياة الآسنة بسبب النفايات ويتأخر رجال البلدية وسيارتهم الكبيرة، كانت الرائحة كأنها تحجب الهواء فنشعر باعراض الاختناق، كنت احدث جارنا الجديد وهو شرطي في كمرك الشلامجة على الحدود الايرانية في اقصى الجنوب، كان يزورنا ليوصينا بعائلته عند غيابه، فهو مضطر للعمل هناك لتحسين وضعه المعاشي فالراتب لا يكفي الملابس المدرسية لابنتيه، في الشلامجة الخير وفير، قال غازي الرائحة تمتص الاوكسجين وهو ما يسبب صعوبة التنفس، لم اعلق أما جارنا فلم يبد اهتماماً، استمر يتحدث عن خيرات الشلامجة .

غازي يكبر بهدوء ولكن بتأثير متزايد على مجمل حياتنا، كنت اقف عاجزاً عن الرد على تساؤلاته، قالت اخت زوجتي وهي معلمة وقليلا ما تقوم بزيارتنا، غازي

فيلسوف، وحين سألتها زوجتي ماذا تقصد، قالت: سيكون صعباً وربما متعباً فهو يحمل هماً خفياً .

عرفت همّه وانا اسمعه يتحدث مع زميله - بدون السلطة لا يمكن اجراء اي تعديل قال زميله - ولكن المرحلة التاريخية ...

لم يتركه يكمل - ما دام الامر يعود ثانية الى المرحلة التاريخية فلنترك الحديث .

وما فكرت به إنهم شباب بلا تجربة ليعتقدوا إن منشورات تطبع في الليل وتوزع في الليل ايضا يمكن ان تساعدهم على استلام السلطة، وحين حاولت ان اعلم غازي بذلك قال: الحجي اصابته العدوى...هذه هي بداية الطريق .

وحين اختفى، كنت اعرف تماماً إنه بيد السلطة، وتولت امه البحث عنه في مراكز الشرطة، في المنطقة اولاً ثم امتد بحثها الى كل مركز شرطة او دائرة امنيه في بغداد، وكنت اعرف انه لن يعود.

*****

كان على أم غازي ان تطعم زوجها فهو غير قادر على خدمة نفسه.

قالت: لقد جاءتنا اختي بدجاجة وقد أعددت لك شوربة دجاج بالخضار.

أغمض عينيه موافقاً... تابعت..

-وجاء شرطي الشلامجة يسأل عنك، وقد تأثر كثيراً بما تعرض له شاكر وحاول ان يعطيني مبلغاً كمساعدة، لكني رفضت بشدة وشكرته فالأمور مستورة والحمد لله، كما إن شاكر اعطاني، لم يقصر معنا فقد اعطاني الكثير.

تطلعت الى الشارع السريع الذي يفصلها عنه درباً خدمياً وسياجاً من الاسلاك الشائكة، الشارع المكتظ بالسيارات التي كانت تطلق اصواتاً حادة دونما مبرر فيما يمسح سائقوها العرق من وجوههم، كانوا يطلقون شتائم في بعضها بذاءة ولكنهم لم يكونوا متحرجين وهم يستمعون بعضهم الى البعض الاخر.

الحياة تستمر... ومن ذهب لن يوقف هذا الجريان ومن بقي سيسبح في تيار الفوضى... هل سيتمكن شاكر من الوصول الى شاطئ ما؟ ولماذا يحصل لنا كل هذا العذاب... غازي يذهب وشاكر بساق واحدة وابيهما بين الحياة والموت!!! أي عين شريرة أصابتنا، تذكرت انها قبل اختفاء غازي كانت تدخل المتبقي من الطحين والخبز غير المباع وتدخل الدار، كان الوقت مساء وقد بدأ الظلام مبكراً وهدأت جلبة السيارات، وهي تعبر عتبة الباب الخشبي الذي يصدر صريراً عالياً وهي تفتحه او تغلقه، سمعت صوت استغاثة مكتومة وكأنها صدرة عن طفل تعرض لأذى، قالت زوجة الشرطي في الشلامجة - العياذ

بـاللّه... لقـد آذيـت أحـد أطفـال الجـن الذيـن يخرجـون مسـاء، الفسـحة الوحيـدة المسـموح بهـا لهـم باللعـب، ففـي هـذا الوقـت تقـل حركـة البشـر... عليـك أن تتـذري لفـك أذيـة الجـن عـن عائلتك أو أن تذهبـي الـى الشـيخ الكـويفي في المنصـور ليجـد لـه رقيـة مناسـبة.

قـال شـاكر وهـو يبتسـم: لقـد هاجـر الجـن مـن العـراق قبـل عشـرين سـنة، واطفالهـم كبـروا الان وهـم توقفـوا عـن الانجـاب .

قالـت زوجـة شـرطي الشـلامجة: انـت تسـخر منـي، الجـن موجـودون قبائـل وعشـائر مثلنـا وهـم مذكـورون في القـران... هـل تؤمـن بالقـرآن.؟

شـعر شـاكر انـه وقـع في كمـين لـم يتوقعـه، فهـو علـى بسـاطته، معـد بعنايـة شـديدة، رغـم إن زوجـة الشـرطي لا تـدرك ذلـك.

قالت أم غازي: النذر أسهل.

قالـت زوجـة شـرطي الشـلامجة: قبـل ذلـك يجـب ان ترشّـي الحرمـل علـى عتبـة الـدار وان تقـرأي سـورة الجـن لثـلاث أمـاس.

قـال شـاكر: تـرش الحرمـل في الداخـل والخـارج، ولكـن أيـن تقـرأ سـورة الجـن.

قالـت المـرأة: في الخـارج لتمنـع الجـن مـن الدخـول او الاقتـراب.

شعرت ام غازي بقشعريرة باردةٍ وهي تتخيل عشيرة الطفل وهي تطالب بالفصل تعويضاً عما لحق بابنهم.

فكر شاكر إنه لولا هذا الايمان البسيط والسلس لاصبح العراقيون كلهم مجانين، الإيمان يمنح الامل مساحة أوسع في نفوس الناس وفي تفكيرهم، والأمل يمنحهم القدرة على تحمل كل هذه المآسي التي تفّرخها الفوضى.

الفصل الثالث

يمكننا أن نسامح بسهولة الطفل الذي يخاف الظلام،

أما مأساة الحياة الحقيقية

فهي عندما يخشى الرجال الضوء

«أفلاطون»

وقفت جانباً عند بوابة المستشفى أمد يدي الى المغلف الذي حرصت ان تبدو زاويته خارج السحاب الذي اغلقته الى اكثر من ثلاثة ارباعه.

كانت بوابة المستشفى مشرعة يقف عندها شرطي يحمل بندقية كلاشنكوف، وعلى طول ممر قصير كانت حشائش متنوعة وبعض الاوراق العالقة، الى الجانب قناني مشروبات غازية لم يجر التقاطها.

استقبلني عند البوابة الداخلية جندي يجلس الى منضدة خشبية متهالكة شملني، بنظرة فاحصة ركزت على العكاز.

- هل اوراقك كاملة؟

- على حد علمي... نعم.

لم يحظ جوابي برضاه فقد بدى له ساخراً أو ربما عائماً لا يكفي، شعرت بانه متردد في التعليق، ربما بسبب ما أعانيه،

مرت امرأة يتكئ على كتفها شاب فقد ذراعه الأيمن، في عينيها تتلألأ بقايا دموع لم تمسحها، تنشر في ملامح وجهها سكينة مستسلمة وكأنها تعبر عن رضاها بقناعة مطلقة انها محظوظة لأنها لم تفقده... أن يفقد ذراعة ليس أمراً يجعلها تعيش عذابات فقده.

قال الجندي وهو يضع ملفي على الطاولة أمامه: بالسلامة سيدي.

أومأ الشاب برأسه في حين واصلا خطواتهما البطيئة الى الخارج، لحظ الجندي تساؤلي، قال الملازم مدحت: أبوه لواء ركن كنت أعمل في فصيل حمايته.

تابع وهو يلتقط ملفي ويبدأ بفحص المستندات: يمكنك ان ترتاح لأستفسر عن موعد مقابلتك اللجنة الطبية.

الكراسي الخشبية في الممر الطويل تصدر صريراً وهي تتلقى أجساد المراجعين المنهكين وهم يرمون بانفسهم ضجرا وتعباً.

كنت دائما أشعر بالحرج وانا أزور بعض الاصدقاء في المستشفيات، لأني لا أخفي ضيقي وانا استنشق رائحة حادة تصدمني، في المستشفيات تجد القطط السمان والجرذان تتعايش بسلام، وفي الممرات وفي الحدائق "وهذا تعبير مجازي" تسرح القطط وقد تخلت عن الخوف الذي يلازمها من الغرباء، كما لم تعد تعير صرخات الاستنكار لتجولها بين المرضى، الممدين على الاسرة الحديدية أو الزوار المفترشين أرض الغرف وهم يشربون الشاي البارد.

الممر مشغول بالكامل، على الكراسي المرصوفة الى الحائطين المتقابلين جنود بإصابات مختلفة، يلتقون في حالة من المشاركة، بتعب مضن، وراء الابواب المغلقة مجموعات من الاطباء وبعض العسكريين يشكلون لجانا لفحص الملفات للعسكريين المصابين في الحرب، وحين

ينفتح أحد الأبواب ليخرج العسكري الذي انهى مقابلته يتطلع الجميع بانتظار، برجاء الدخول لمقابلة اللجنة، كان الجندي في الإستعلامات يصّر على أن يكون الحديث همسا، قال جندي يجلس الى جاني وهو يكمل حديثه مع جندي يجلس مقابلا - ليشملنا الرب برحمته.

قال الجندي المقابل: الأخ كاثوليكي أم بروتستاني.؟

- أرثوذكسي

- هممممم

في المستشفى يدققون ملفات القادمين الجدد بعناية فائقة وقد وجدت ان الأمرلا يخلوا من المفارقة، حين قال جندي يحدث زميله - لقد هرب المقاول بكل الاموال التي استلمها، وترك الشارع أمامنا وكأن عمليات تخريب متعمدة شقت وسطه والقت الاتربة على الحانبين، ويتعذر الان دخول السيارات اليه، كما إننا نترقب الشتاء القادم بقلق.

- ولكن هل يبقى على حاله حتى الشتاء، قال الجندي المجاور.

- نعم... لقد هرب المقاول بكامل تخصيصات المشروع.

أومأ إلي جندي الاستعلامات أن اتقدم نحوه.

- موعد مقابلة اللجنة الطبية بعد عشرة ايام.

سلمني ورقة صغيرة عليها التاريخ والوقت وختم المستشفى، لم أودع أحداً وأنا أغادر المستشفى.

حين كنت في مستشفى الميدان الخلفي، كنت اتشاغل بالنظر الى الخارج عبر الشباك الزجاجي، لم تكن الرؤية واضحة تماما بسبب ما تراكم على الزجاج من اتربة، حولت الامطار بعضها الى لوحات سريالية تتخللها خطوط خلّفها تراكم الغبار بينها مساحات، هي التي تتيح لي الرؤيا، غير بعيد كانت هناك ثلاثة براميل كبيرة أستعملت مكبا لبقايا الاطعمة التي تظل تحت الشمس ثلاثة او اربعة ايام قبل نقلها، كان هناك غراب أسود اكبر حجما من المعتاد، يقف صباحا على حافة احد البراميل ثم تاتي (فاختة)، ينزل الغراب الى البرميل ليختار كيسا يرفعة ويقوم بفتحه ويشتركان بالتقاط الاطعمة، كان الغراب يلتقط الطعام بسرعه وهو يتلفت بحذر فيما الحمامة تلتقط طعامها بتؤدة غير مبالية، وفي يوم كان الغراب كالعادة يقف على حافة البرميل منتظرا الحمامة ولكنها لم تحضر... لم ينزل الى داخل البرميل وحين بدأت الحركة في المستشفى غادر دون ان يتناول شيئا،استمر الامر ثلاثة ايام ثم اختفى.

بدأت موجة غبار مجنونة تخيم فوق بغداد وبدت أشعة الشمس كابية وهي تنساب عبر تعرجات الغبار الرملي، الذي توقف عن الحركة معلقا على نحو مغيظ،

تصطدم به المارة فيملأحلوقهم بطعم الرمل الصحراوي المالح، وحين يحجبون عيونهم بايديهم يتعرضون للاصطدام بعضهم ببعض، وعلى امتداد شارع القناة بدت البيوت اشباحا ضخمة لحيوانات خرافية فيما ضج الشارع بأبواق السيارات وهي تسير ببطئ شديد، وبدت بغداد وكأنها تتلبسها حالة من الانزياح الى ما قبل تمدد دجلة الى البحر، فهي في جوف زمان الصحراء والجفاف، توقفت سيارة أجرة لتنزل ضيفا جديدا للمستشفى، صعدت حتى قبل ان أساوم السائق على الاجرة، هو أمر لا بد منه مع سائقي التاكسي الذين يقررون السعر على أساس المشقة والتأخير الناجم عن الازدحام.

أمام التنور كانت أمي شبحا سومريا بجلابيتها السوداء والشيلة التي تلفها على رأسها، لم اتبين ملامحها فقد كانت تحرك المحراث لإذكاء النار، وكان يقف أمامها صبي، تقدمدت لأحييها، كانت تخاطب الصبي.

– قلت لك اربعة ارغفة بدولار أو عد الى البيت وهات دنانير عراقية، كل رغيف بمئتين وخمسين دينارا، بالدولار اربع ارغفة أو اذهب الى التنور في رأس الشارع.

قال الصبي: طلب أبي أن اشتري منك فقط.

– حسناً سأعطيك خمسة أرغفة ولكن أعد الدولار وقل لأبيك أن يدفع بالدينار.

قلت لأمي: أعطيه خمساً وخذي الدولار.

قالت: أهلاً شاكر.

تجاهلت ما قلته وتابعت..

- هل استلمت النتيجة؟

- ليست هناك من نتيجة، لقد أعطوني موعداً لمقابلة اللجنة بعد عشرة ايام.

أبي على السرير، فتح عينيه وأومأ يريد ماء، أسندت رأسه إلى وسادة ثانية وبدأت أسقيه رشفات متقطعة، لاح سؤال في عينيه قلت له: سأقابل اللجنة بعد عشرة أيام.

حرك عينيه، فهم ما قلت.

بدأ الغبار يغادر بغداد ببطئ وأصبح من الممكن رؤية المنازل في حي النصر وهي تستعيد ملامحها وان كان على نحوغير واضح.

عادت أمي ببقايا الخبز والطحين بعد أن أغلقت فوهة التنور، على الباب كانت زوجة شرطي الشلامجة، لم تدعني امي افتح الباب، في يديها بقايا العجين، دعت المرأة الى الدخول، ربما لم تلحظ إن أمي لم تغسل يديها بعد.

- ليس لي احد أحدثه اشارت عليّ البنتان ان استعين بكم.

- لا بأس.. أجابت أمي باقتضاب.

- أبوشيماء لم يصل... اتصل بنا قبل يومين وكان

يؤكد انه سيحضر فقد استطاع الحصول على إجازة لمدة خمسة عشر يوماً.. كان فرحاً لأنه سيبني غرفتين ومرافق على السطح للبنتين، وستظل غرفة البنات في الأسفل للضيوف، قال بأنه سيصبغ البيت من جديد أيضا وسيحقق حلمه أخيراً.

ولكنه لم يحضر... أنا قلقة جداً... هاتفه النقال لا يرد وهذا غير مطمن، هل سمعتم في الاخبار شيئاً عن البصرة او الطريق الى بغداد.

التفتت نحوي وهي تنطق عبارتها الاخيرة.

لم أستطع أن أخبرها بأن شمال البصرة يشهد قتالا عشائريا ويشهد أيضا عمليات سلب وخطف على الطريق.

(مجمان) كان هذا اسم شرطي الشلامجة وكان هذا اول الغرائب معه، كان طويلا نحيلا، عيناه زرقاوان صافيتان وبشرته بيضاء بسمرة مكتسبة وشواربه شقراء، لم يحاول ان يخلق علاقات متينة مع أحد ربما بسبب كونه يعمل باستمرار خارج بغداد، حينما يسقط المطر وتتحول أزقة وشوارع حي النصر الى ممرات طينية، يحرص (مجمان) على ان يضع حذائيه العسكريين بكيسين من مشمع لا يسمح للماء بالعبور، يصل كل منها الى منتصف الساق، وحين يصل الدائرة ينزعهما.

*****

لم يبادرمجمان بزيارة أي من جيرانه، ولهذا فان

أحداً لا يتذكره ان غاب عن الحي، ولا يتذكر شاكر إنه انفرد معه بحديث، وكانت أم غازي المشغولة طوال النهار بالتنور لا تهتم كثيراً بتسقط اخبار جيرانها.

قال شاكر: صباحاً سأذهب الى مديرية شرطة الحدود للسؤال.

قالت أم شيماء: هل يمكن أن أكون معك.؟

لم يكن لدى المديرية أية معلومات ولكن ضابطاً من أهل القرنة على الطريق الى بغداد، اخبرهما بان المنطقة شهدت قتالاً واسعاً وبأسلحة متنوعة وتم قطع الطريق وقد يكون هذا هو السبب.

لم يطمّن أم شيماء هذا الحديث، وظلت تشعر بخوف مبهم ممزوج بهواجس القلق.

- الامر لله، قالت أم شيماء.

تابعت بصوت ضعيف.. الله المعين.

في الطريق حاول شاكر ان يخفف عنها او على الاقل يبعدها عن القلق الذي يسيطر على تفكيرها.

- ربما تزوج في البصرة..!

إلتفتت نحوه وقالت جازمة.. إلا مجمان!

قال: ولكن ألا توافقيني إن اسمه غريب وهو غير مألوف على حد علمي.

قالت: نعم ابوه كان في الليفي وقادة الليفي من

الانكليـز، وقـد يكـون تأثـر باحدهـم... الاسـماء تخضـع للتقليـد، ففـي كل فتـرة تنتشـر موجـة مـن الاسـماء.

كانـت أم شـيماء في الخامسـة والاربعـين وقـد تعرفـت علـى مجمـان وهـي في العشـرينات و كلاهمـا يعمـل في مطعـم صغيـر، كان زواجهمـا سـريعاً فهـي بـدون ام وهـو بـلا عائلـة، فقـد تركهـا في قضـاء القلعـة وانقطعـت علاقتـه بهـم... في السـنوات الخمـس الاولـى لـم يرزقـا بأطفـال وكان ذلـك يعذبهـا، فمجمـان يحلـم بمجموعـة مـن الاطفـال ليبـدأ بهـم آل مجمـان كمـا يقـول... لـم يحتـج أو يتذمـر، وحـين ولـدت شـيماء كان سـعيداً، بعـد سـقوط النظـام اسـتطاع ان يلتحـق بشـرطة الحـدود بواسـطة صاحـب المطعـم الـذي اصبـح ضابطـا في الجهـاز.

*****

اسـتقبلتنا أمـي عنـد البـاب، لـم تسـأل عـن النتيجـة، كان لديهـا خبـراً أهـم.

– لقـد بـدأ ابـوك يحـرك رجليـه وحـرك جسـده ليعتـدل، ولكنـه ظـل صامتاً .

احتفلنـا أنـا وأمـي ليلتهـا بعـدد مـن أقـداح الشـاي الصغيـرة والـذي حرصـت أن تطعّمـه بالهيـل.

في الصبـاح رفـع أبـي رأسـه، كنـت اتنـاول فطـوري وكانـت أمـي قـد بـدأت تضـع الخبـز في التنـور، فيمـا تحلـق حولهـا بضعـة اطفـال يسـتعجلونها، طلـب بصعوبـة وبكلمـة ممطوطـة

وكأنه يتعلم النطق: شاي.

كان صوته كصدى يبلغني في نهاياته، كأنه يوشك أن يتلاشى، ولكنه صوت أبي الذي يعود ثانية للحياة، بدا وجهه يحمل قناعة مسترخية، هادئاً على نحو يبعث في الطمأنينة.

وقفت أمي أمام التنور وأغمضت عينيها وتمتمت بسرها سورة الفاتحة.

النهار رائق وبقايا الغبار يضفي على الشوارع الترابية لوناً مختلطاً، بغداد تتنفس بعمق لتطرد الرمل الناعم الذي غزاها من الصحراء الشرقية، بعد أن قرر أن يغادرها منسحبا بهدوء، لكن على نحو متوازن وكأن خطا على الارض يتحرك الى الخلف يلتزم الغبار بعدم الخروج عليه.

تطلع أبي نحوي وكأنه يراني للمرة الاولى، مسح على لحيته وبدا متأملا.

- متى عدت.؟

كنت جالساً على كرسي بمساند، فلم يلحظ ساقي الهاربة.

- هل رأيت غازي.؟

فاجأني السؤال، تابع..

- يبدو إنه قد كبر قليلا... ولكنه لم يتغير.

قالت أمي وهي تأخذ الطحين من كيس أبيض.. يعينه الله.

فكرت انه يتعرض لمرض الزهايمر أو انه ما زال في مرحلة إستعادة الوعي الذي فقده.

جاءت أم شيماء وهي تبكي...

- لقد عاد مجمان، سلبوه كل ما لديه حتى ثيابه العسكرية، وقد تصدق علية أحد المارة بجلابية قطنية، المهم سلامته، بناء البيت يمكن ان يؤجل، قال بان ما سلبوه كان يمكن ان يبني بيتاً جديداً.

قلت على سبيل الدعابة: هل كانت المبالغ بالدينار أم بالدولار.؟

- مشكّل، ولكن الدولارات والإيراني كانت الاكثر.

قال أبي: العراقي أهم.

قالت أم شيماء: اودعكم.. فقد جئت لأطمنكم فقط، وسيزوركم هو بعد ان يرتاح ويتجاوز الازمة.

*****

لم ينشغل شاكر بالتفكير بالخطوة التالية، المهم الآن الساق الصناعية ليستطيع الحركة بحرية اكبر، الراتب التقاعدي سيكون كافياً، غداً سيزور بعض الاصدقاء، وربما سيحظى بافكار جديدة، كان يحلم وهو في الجامعة بأن يحصل على شهادة عليا، لكن البطالة ومحدودية

موارده المالية أبعدته عن حلمه وحينما تطوع في الجيش خالجه شعور بموت ذلك الحلم.

قال لأمه: لقد جاء الوقت لترتاحي فما سأستلمه من تعويضات والراتب التقاعدي سيكون كافياً.

كان الوقت مساء، يجلس هو الى كرسي حديدي مفروش، وتجلس أمه الى صندوق الشاي الخشبي، صندوق مدهون باللون السود، ربما منذ مدة، فاللون حائل، مستطيلاً غطاؤه يحدث صريراً خافتاً، في الداخل خانات لوضع الاقداح الصغيرة، ستة أقداح شفافة تحيط بها من أعلى حلقات ذهبية، وخانة للملاعق الصفراء الزاهية واخرى للصحون الزجاجية، ذات حواف بتموج متكسر للمساعدة في الامساك بها، أما قاع الصندوق فهي لمعدات الشاي (قوري صيني وكتلي من الالمنيوم).

أبوه يشرب الشاي بهدوء، ويبدو شارداً.

قالت: وماذا افعل.؟

تساؤلها يكشف حيرة، لقد عاشت سنوات طوال أمام التنور وهو عملها وتسليتها، فهي تصنع الخبز وتتعامل مع أناس لا تعرف معظمهم، يشكلون لها عالماً مليئاً بالمعرفة وبالتسلية ايضاً، حتى إنها انقطعت عن الجيران، وتعرف حكايات تبدو غريبة احياناً تقصها نساء يتوقفن لدقائق، بعضهن يقدن سيارات وبعضهن يحملن أكياساً بلاستيكية ويستخدمن باصات النقل العام، مثقلات بما يحملن،

ويتحدثن جميعاً بهمومهن، وتستمع هي دون ان تتوقف عن رصف أقراص العجين في التنور أو إخراجها محاذرة ان تلسعها النار.

قال ابوه: زهرة هل تعرفين متى سيعود غازي... كان يقول دائماً، ان شاي أمي هو الأفضل في العالم.

ابتسم وعاود يشرب شايه.

قالت امه: لا أستطيع التفكير بالتقاعد... ألا ترى إن أمك ما تزال شباباً.

*****

لم يكن من السهل الوصول الى المقهى، فأنا ما زلت أواجه صعوبة في استعمال العكاز والتنقل به، سيما وان الشارع الاسفلتي الوحيد في حي النصر والذي عانى اهمالا متواصلاً منذ خمسين سنة، قد ملأته الحفر، ورغم مطالبات الاهالي الملحة الا ان أحداً لم يأخذ هذه المطالبات على محمل الجد.

استقبلني زاير خليف صاحب المقهى مرحباً فقد كنت أحد الرواد المزمنين، وهنا كنت أبرع لاعب دومينو ونادراً ما كنت أدفع قيمة الشاي أو الحامض الذي أشربه، فقد كان على حساب الخاسرين.

مقهى الزاير كما كنا نسميه، عالم متباين الملامح ومتنوع الرؤى، فهنا يتوزع شباب يتباينون في افكارهم، ولكنهم عموما بلا عمل أو انهم يمارسون أعمالاً موقتة

بعضها ليوم واحد، في الزاوية اليسرى يشكل مثقفو حي النصر حلقة ثابتة لا تنفك تناقش كل ما يجري في العالم ويطرحون حلولا لكل المشاكل دون ان يبحثوا في حل لبطالتهم المزمنة.

في وسط المقهى مجموعة تواصل لعب الدومينوأو الطاولي طوال لنهار، أما في المساء فهو يتبارون في نكات تتناول السياسيين واعضاء البرلمان العراقي... تبدأ النكات بقفشات مضحكة ولكنها تنتهي دوما بنكات بذيئة، كنت في مواقع القتال كثيراً ما أحلم بمقهى الزاير وأراها أحياناً معلقة في صحراء مترامية وروادها يتطلعون بدهشة تاركين كل شيئ، ولكن مثقفي حي النصر يتحدثون عن الصيرورة الجديدة لحركة التاريخ في ظل التفوق الامريكي الذي سينتهي بنهاية العالم، ويقول حسن أبو إصبع:

- من حسن الحظ ان الزاير نقل مقهاه الى خارج التاريخ... كنت أضحك وأنا استعيد الحلم رغم ان زخات الرصاص تمرّ من جانبي حاملة الموت الذي تمدد في حي الزنجيلي.

كنت أجلس على تخت على ناصية الشارع... مرّ مجمان يمشي ببطئ وهو يرمي المقهى بنظرة بدت فاحصة... دعوته الى الجلوس... نظر نحوي وجلس الى جانبي، كان مهموماً... لقد ضاع كل شيئ، ربما سمعت بما جرى...قلت له نعم ولكن كل شيء يمكن تعويضه

فخير الشلامجة كثير، ابتسم بمرارة.

قال: كانت فرصة لا أعتقد انها تتكرر، كنا أنا والعريف محسن حين أوقفنا أحد المهربين الكبار والذي يعرفه كلانا

قال – ليلة جملية رغم غياب القمر.

وقدم لنا علبة سكاير... لم اكن أدخن ولكن العريف أخذ العلبة ووضعها في جيبه.

قال العريف: لم تترك عبادان في هذا الليل لتقدم لنا السكاير.

قال المهرب: بالتاكيد ومن محاسن الصدف ان التقي بكما، لدي صفقة العم.

جلسنا على ضفة شط العرب، كان الماء الغريني يتدفق بموجات متلاحقة، بدت صفحة النهر داكنة فيما انعكست نجوم تتبادلها الموجات المتكسرة فتلتمع وكأنها تستحم فرحة باللهو في الماء، أما اشجار النخيل فقد شخصت متعالية في ظلام منحها غموضاً آسراً.

اتفقنا بسرعة، سلّمنا رزمة من الدولارات والدنانير والتومان، لم يكن تنّوع العملة موضوع خلاف، في بغداد يمكننا ان نستبدل كل عملات العالم كما ان لدينا خبرة بأسعار التبادل وتقلبات السعر.

عبر زورق يقوده شخصان ملثمان وغير بعيد على الجانب العراقي كانت سيارة شحن صغيرة تنتظر.

سلمنا باقي المبلغ وكانت المشكلة في اقتسامه، قال العريف :لك الثلث ولي الثلثان.

لم أوافق، قال المهرب: من المعقول أن تكون حصة العريف اكبر، هو بثلاثة خيوط وأنت لا تحمل خيطا واحداً، اقترح ٦٠٪ للعريف و٤٠٪ لك، وافقنا.

توجه المهرب الى البستان المجاور وغاب في الظلام الذي يسكن بين النخيل، وحين عدنا الى المقر لم يلحظ أحد ما حصل، العريف من البصرة، ولهذا غادرنا في الصباح الباكر متعللاً بمرض ابنه.

أما أنا فقد بقيت ثلاث ليال انتظر انتهاء نوبتي، كنت اخفي المبلغ بحقيبة ملابسي وفي جيوبي، اوقفنا القصف المدفعي المتبادل بين متخاصمين شمال القرنة، وعند الظهر سيطر بعضهم على الشارع العام، أنزلونا وطلبوا ان نسلمهم كل ما نملك، فتشوا الحقائب بدقة وحين وجدوا المبلغ في شنطة ملابسي كانوا فرحين، قال أحدهم إنزع ملابسك، أكيد ستكون محشوة بالدولارات وارفقها بشتيمة بذيئة، كنت أرتجف من الغضب ومن الخوف... هنا يمكن ان تقتل دون اية مسؤولية يخشاها القاتل، ولهذا فاحتمال القتل وارد، كنت غاضباً لأن الحلم الذي رافقني ليالي انتظار الإجازة قد تحوّل الى كابوس مرعب.

ابتسم مجمان بمرارة وقال: لماذا احكي لك!

قلت: لتخفف عن نفسك.

لم أقل له لتخفف من وزر الجريمة التي ارتكبتها.

تناول قدح الشاي وضحك قال: هل تعلم اني حين دخلت الدار وبمجرد ان عرفت أم شيماء بضياع النقود ماذا قالت؟

قلت: كيف لي ان أعرف.

لم يلتفت نحوي كان مهتماً بأن يتحدث أكثر من اهتمامه بأني استمع.

قال: ضربت على صدرها وردحت وهي تنشد ... دكّن حيل نسوان البوليسية خمسة بالشهر خلصت الخرجية.

حين هدأت قالت لي بأنها كانت تسمع هذه الاهزوجة من أمها في قلعة صالح.

قلت: وما سمعته أنا ... كوكس مات وانكطعت الروبية.

*****

شعر شاكر إن مجمان لا يشعر بالذنب عما فعله هو وعريفه ولكنه يشعر بالأسف لفقدانه المبلغ، وهو يتحدث ليبعد نفسه عن التفكير أو لينسى انه يتحمل الان نتائج هزيمة جديدة ولكن قاسية، فهو فقد حلم حياته ليجعل بيته يواكب الحركة الجديدة التي يشهدها حي النصر بإعادة إعمار البيوت القديمة المتهالكة، فكر إن الحصول على النقود باية وسيلة هي مسألة مشروعة ....لقد فقد

الحلم وهو يعيش اليوم بهاجس الاحباط الذي يدفعه الى الحديث بصوت هامس.

كان مقهى خليف الزاير مجتمعاً شديد التعقيد والتناقض، الشعراء الذين يصرون على القاء قصائدهم في المقهى والكتاب الذين يحللون الوضع السياسي، ينتهون الى وضع الحكومة في قفص الاتهام، لاعبو الطوالي الذين يسبون الحكومة ومجلس النواب، كلما كانت ارقام النرد معاكسة لتوقعاتهم وأخيراً مجموعة ملتحية تتحدث بلغة عربية اقرب الى الفصيح ولكن بلكنة غريبة.

المناقشات الحادة والصاخبة بسبب تعارض وجهات النظر كانت تنتهي دون الوصول الى أية نتيجة، ولكنها لم تدفعهم الى شجار او معارك قد ينتج عنها تدمير المقهى، معظم الرواد تطغي عليهم مظاهر دينية ولكن هذا لم يمنع بعظهم من توجيه شتيمة الى مذهب منافسه الذي يحصل على الدوشيش حين يرمي النرد على الطاولة.

في المقهى تنتقل الاشاعات بكل ألوانها، من مجموعة الى أخرى، ويتم تحليل السياسة العراقية وتوجهات الاقتصاد ومبيعات البنك المركزي من الدولار، وآخر المعارك في الموصل واخبار الحشد الشعبي وفتاوى المرجعية التي يلتزم المتحدثون عنها بتسميتها (المرجعية الرشيدة).

وفي مقهى خليف الزاير جرى اول تقارب يحمل مشاعر المودة في العلاقات بين تيار(السيد) وبعض اعضاء

الحزب الشيوعي، وحينها علق فاضل أبوالبرنيطة، ان هذا التقارب سيؤثر على الشعار المركزي للحزب الشيوعي وسيجري تعديلة ليكون (ياعمال العالم صلوا على النبي)، وبعد توقيع بيان التحالف الانتخابي قال ابو البرنيطة سيقومون باجراء التعديل الثاني ليكون الشعار (يا عمال العالم صلوا على محمد وآل بيت محمد)، وشرح عادل الاستراتيجي ذلك بانه يعود في جذوره الفلسفية الى الفلسفة البراكماتية وتابع وهذا يعني ان كل التحالفات الانتخابية ستكون هشة، لأنها نفعية بمعنى انها انتهازية مبنية على المصالح والتي هي في طبيعتها غير ثابتة في تحديد الاطراف التي تتقاسمها.

وكثيراً ما يقطع كل هذا الحديث إصرار حسين الساعدي على القاء قصيدته، التي نظمها طوال الليل الفائت على ضوء الفانوس الذي اشتراه من سوق الشورجة، لهذا الغرض، وكالعادة ما يبدأ الساعدي بالالقاء حتى يغادر عادل الاسترتيجي متناسياً أن يدفع ثمن الشاي، فيناديه خليف الزاير - أبو سعدون الحساب.

فيعود ليدفع المئتين والخمسين ديناراً، وقبل أن يقول لازمته يقول خليف - أبوك كان يتقاضى خمسة وعشرين ديناراً في الشهر وهو مربي أجيال، لابأس أمور دنيا.

اقترح عبد الائمة، الذي فشل للمرة الثانية في اجتياز امتحان البكلوريا، رغم مشاركته في الامتحان لأربع مرات،

ان يكون هناك ركن في المقهى لقراءة الجرايد، وحين اعترض خليف بعدم قدرته على شرائها، قال عبد الائمة انه سيذهب الى ادارات الجرايد في بغداد لتزودهم بها مجاناً.

قال أبو برنيطة: ومن يدفع الثمن؟

قال عبد الائمة: لا أحد، سيزودونا بها مجاناً، لأنهم سيضمنون إنها ستقرأ.

وحين نجح عبد الإئمة في مسعاه ووافقت سبع جرايد ان تزود المقهى يوميا، أخذ فاضل أبو برنيطة على عاتقه وضعها على حامل خشبي، واشرف على إعادتها بعد أن يفرغ الزبون، وكان ذلك قد رفع من حدة النقاش في السياسة والادب واصبح من المألوف أن تجد ثلاثة أو أربعة زبائن منهمكين في مطالعة الجرايد، وقد شجعت هذه النتيجة أبو برنيطة ليلتقط عدة صور للمقهى ولقراء الجرايد ويكتب عن الموضوع بضعة اسطر لتنشر في الصحف السبع، بعد أن خص كل جريدة بصورة تبرز عنوانها بيد القارئ في المقهى.

دفع هذا النجاح والضجة التي أثارها، أبو البرنيطة الى تقديم مقترح جديد.

قال: لدى العديد منا مجلات قديمة وكتب مصفطة ولكن (ما قراها)، يمكن ان تسغنوا عنها، ولديّ مكتبة اشتريتها عندما كنت اشتري الكتب من سوق الجمعة أو

سوق الغزل، وهي الآن تضايقني بعد ان احتل سرير ابن أخي نصف الغرفة.

بعد اسبوع كانت المجلات تتنوع بأغلفتها، بعضها يحمل وجوه رجال دين بملامح صارمة ومتوعدة، وبعضها لفتيات يبتسمن بخيلاء، وبعضها الآخر تملأ اغلفتها شعارات سياسية.

اقترح ابو برنيطة، على خليف الزاير أن يضع لافتة على مكان المكتبة عليها (ركن الزاير الثقافي بإشراف أبو برنيطة).

قال خليف الزاير: هذه نتيجة من يوافق مجنوناً.

الفصل الرابع

من السهل أن يقف أي شخص وسط الجموع،
لكن الشجاع فقط من يتمكن من الوقوف منفرداً
جلال الدين الرومي

في الطريق الى معمل الاطراف الصناعية لإجراء القياسات وتزويدي بالساق البديلة، انتهت شوارد تفكيري بالساق الهاربة، ولم يعد يعنيني انها لدى الكلاب السائبة، أو إنها ما زالت تحت أكوام النفايات التي طمرها ركام الاحجار التي نثرتها السيارات المفخخة في أزقة حي الزنجيلي الضيقة، أو قذائف المدفعية التي كانت تستهدف العدو المتمترس في منعطفات الحي.

كانت اللجنة الطبية في مستشفى ابن القف على قناة الجيش، منهكة، وهي تكرر على نحو نمطي ذات الاسئلة، وتقوم بفحص أطراف عشرات الجنود المصطفين خارج الباب الذي يحرص الممرض على إغلاقه باحكام بعد دخول المراجع.

لم تستغرق معاينة ساقي ومراجعة المستندات في الملف الذي قدمته، عشر دقائق، وقع أعضاء اللجنة كتاب الإحالة وسلمه لي الطبيب الذي كان يحتلّ الكرسي الاخير شمالا، دون ان ينظر نحوي، مد يده بالكتاب، كان رأسه المدور وملامحه الدقيقة تمنحاه صورة طفولية، سيما إن كفه كانت صغيرة بأصابع دقيقة بيضاء، في عينيه نظرة عميقة ولكنها لا توحي بالثقة، تتأرج بين الضجر مما يعمله وما يواجهه كل نهار، وبين أسفه لما يحصل ويشعر أنه مربك، بسبب العالم الذي يحاصره الخراب، شباب بلا أطراف يبحثون عن أطراف صناعية وكأنهم

يتخفون وراء كذبة تعيدهم الى الحياة ليظلوا يتحركون في المساحات التي تركتها الحرب، حتى الشياطين تبكي على خراب العالم، ظلت هذه الفكرة معلقة فوق بغداد منذ زمان الحلاج.

جاء صوته سريعاً متعثراً، واجب كلّف به دون أن يسمح له بابداء رأيه.

- تعرف موقع المعمل؟

قلت: لا

قال: سيدلك كاتب الاستعلامات.

عند باب المستشفى انتظرت سيارة أجرة، مرّ الوقت بطيئاً، توقفت سيارة خاصة، أطل السائق، عيناه واسعتان تومضان بلمحة ساخرة وشعره الذي نثره الهواء يوحي بمزاجية مرحة.

- الى أين؟

- معمل الاطراف الصناعية، ناولته الورقة التي عليها العنوان

- أعرفه، اصعد

- كم الأجرة

- بدون أجرة

- لا يمكن وإذا لم نتفق لن أصعد... لا أريد مشاكل

- حسنا... دينار واحد

- أرجو ألا تمزح

- جرّب

صعدت الى المقعد الأمامي

- أين تعرضت للإصابة

- في الموصل

- يعني في مدينتي... لهذا أنا مدين لك ويمكنك أن تحتفظ بالدينار أيضاً... ابني أصيب في الأنبار... وبترت ساقيه... لا أعتقد بأن هناك زمن أسوء من الذي نعيشه.

- هل كان في الجيش؟

- نعم كان ملازماً في سلاح الهندسة... هذا قبل سنتين... لذا أنا أعرف جيداً ما تعانيه، وقد عرفت طريق معمل الاطراف الصناعية.

- وهل تساعد فعلاً؟

- من؟

- الأطراف الصناعية.

- نعم ولكن بحدود... إبني حكمت يدير الآن سوبرماركت كبير في الكرخ، كنت في أوروبا بسفرة تجارية، وفي أحد المولات في هولندا شاهدت فتاة على كرسي كهربائي متحرك، كان نصفها الاسفل مشلولاً تماماً، وحين خرجت استقلت سيارة صغيرة مصممة لتقودها وهي على الكرسي، استطعت ان أحصل على الموافقات

واشتريت لحكمت السيارة، وهو يستخدمها الآن ويجلس في السوبرماركت على الكرسي أيضاً.

- لست في وارد شراء سيارة، ولكن مبروك لإبنكم.

صمت، شعرت إن العودة ثانية للحياة ممكنة، ولكن لحياة ثانية ليس لها علاقة بالحرب، حياة... الحاجة بها الى أطراف سليمة أقل، لأول مرة يداخلني شعور بالرضى... شعور توفيقي يجعلني أكثر إيجابية متجاوزاً تعب الانتظار أمام باب مستشفى إبن القف وشعور المرارة وأنا أتحرك على عكاز والأسف لساقي الهاربة.

تطلع نحوي رجل في الاربعين لونه اقرب الى القهوة الشفافة التي يعدها خليف الزاير، وحين قدمت له الملف تناوله وطلب مني أن أجلس ثم دخل غرفة كان بابها مواربا.

- ادخل.

قال لي الرجل، وقف ورائي، شعرت انه ربما يتوجس خيفة من أن يتركني مع فتاة في غرفة تفوح فيها روائح مختلطة من الجدران المصبوغة حديثاً بلونين، كان اللون العلوي أبيض وحتى منتصف الجدار، أما النصف الأسفل فقد كان فاقع الزرقة يكشف عن مخيلة لم تتمتع بأي مستوى مقبول من الذوق، على منضدة طويلة أدوات قياس هندسية وقطع حديدية ومسامير وسيور جلدية ما زالت رائحة دباغتها عطنة.

قالت الفتاة: تفضل بالجلوس وامهلني خمس دقائق.

جلست أمامي على كرسي بدون مساند، وبدأت ترفع ساق البنطال الفارغة، تطلعت الى منطقة البتر الحمراء.

- هل تؤلمك... أحياناً.

- لا...

ضغطت عليها برفق.

كانت الفتاة ضيئلة الحجم خيّل لي إنها تعرضت لعملية مقصودة لتشغل مساحة أقل في الغرفة، يتلبس وجهها صمت يحمل طابعاً متحدياً، ورغم إن أنفها كان صغيراً، فهو يملك فتحتين مدورتين واسعتين قياساً بحجمه.

بدأت تسحل على ورقة على المنضدة القياسات، طلبت مني ان أقف اكثر من مرة لتضبط طول الساق ومكان القدم لينسجما مع ساقي التي رفضت الهروب.

أخيراً قالت: انتظر عند الاستعلامات.

لم اتمكن من لجم فضولي، قلت لموظف الاستعلامات: المهندسة من بغداد؟

- يعني...

كانت اجابة مراوغة ربما ليقطع الحديث، بدأ يرشف الشاي من كوب كبير من الزجاج الشفّاف وهو يراجع الاوراق التي كانت مكدسة على الطاولة امامه.

قالت الفتاة: يمكن ان تعود في الخامس عشر من الشهر القادم لإجراء تجربة الساق الجديدة.

لحظت انها وهي تتقدم نحونا كانت تعاني من صعوبة في توازنها، كان في قدمها اليمنى حذاء يرتفع عن الارض بقاعدة حوالي خمس سنتمترات.

قال سائق التاكسي أنت خارج بغداد، ستكلفك السفرة عشرون الف دينار .

بعد مناقشات.. قبل بثلاثة عشر الف.

كانت أمي تقف عند التنور وأبي يجلس على كرسيه عند الباب، حين نزلت أسرعت لتساعدني فأومأت لها أن لا حاجة، نظر أبي نحوي بمرارة أحسست بها تذوب في فمي وتنساب الى معدتي، رائحة الخبز تملأ المكان.

شعرت أني أعيش عالما آخر غير الذي تعيشه بغداد، كل شيء هنا يجري برتابة وبيسر، ويشكل التنور الذي لم يتوقف في أشد أيام الانفجارت قسوة، عصب الحياة الذي يرفض ان يستجيب للخوف.

التلفاز يعرض مناقشات البرلمان ورد في خاطري انهم في جزيرة تغرق في هدوء مرعب ويعمدون الى الصراخ الذي يقومون بضعطه لئلا يتمدد خارج القاعة، توقف الصراخ فجأة حين اقترح أحد الأعضاء وهو يمسح على لحيته المصبوغة في الصباح الباكر، وهذا واضح من تألق لمعانها، بأن يتم غلق الباب في آخر القاعة لأن هواء بارداً

يجتاح المقاعد الجنوبية.

قال عضو كان يرتدي لباساً عربياً: لا أوافق.

انقسم الحضور بين موافق ومعارض ووقف مقرر البرلمان وهو يعدل من وضع (الجراوية) على رأسه وتحدث، ولكن كلامه لم يسمع بسبب الضجة التي سدت مساحات القاعة.

صعد المقرر ليقف بين كرسي رئيس البرلمان ونائبه الثاني، على المنصة الخشبية رافعاً كلتا يديه وضرب على القاعدة الخشبية بقوة، ساد صمت قلق.

قال مقرر البرلمان: سنصوت على شكل الاقتراع.

ارتفعت أياد فوق الرؤوس فيما توقف بعضها بموازاة الصدر وظلت البقية تتارجح على الجانبين.

- حسناً... سيتم التصويت بالاقتراع العلني.

بعد إجراء الاحصاء قال مقرر البرلمان - وفقاً لنتيجة التصويت تقرر عدم غلق الباب الجنوبي وذلك بالاغلبية المطلقة.

ضرب رئيس البرلمان بمطرقته معلناً رفع الجلسة حتى يوم السبت القادم.

وأنا أقوم لغلق التلفاز كان باب الغرفة يطرق بتردد، كانت شيماء على الباب، عيناها الزرقاون تشعان رقة، بدا عليه الاحراج، شعرها الناعم الاحمر كان منسدلاً

على كتفيها، في الخارج كان مجمان يتحدث مع أمي التي كنت تنحني على التنور لرفع الاقراص الناضجة، شعرت بالاحراج فهي اول مرة أقابل فيها فتاة على بابنا، فتيات الكلية يتكدسن في ركن من الكافتريا أو يجلسن في المقاعد الامامية غير متقيدات بتسلسل الجلوس حسب الحروف الابجدية.

– آسفة... إذا كنت مشغولاً يمكن أن أعود بوقت آخر.

كان في يدها ملف بغلاف شفاف.

– لا... تفضلي.

– طلب استاذ النظرية النقدية ان نكتب تقريراً عن اتجاهات السياسة النقدية للبنك المركزي العراقي، ولأنك متخصص في الاقتصاد فكرت ان تطلع على ما كتبته قبل تقديمه وقد شجعني أبي.

– لا بأس يمكن أن اراجعه الليلة، ولكن كما تعلمين أشهر الحرب غطت مساحة كبيرة في ذاكرتي... والسؤال المهم هو هل راجعت تعليمات البنك المركزي واتفاقياته.

– قمت باكثر من زيارة لمقابلة مدير الدائرة الاقتصادية ومكتبة البنك المركزي.

– غداً بعد الظهر ستكون ملاحظاتي جاهزة.

انسحبت بهدوء.. فيما لاحت على ثغرها ابتسامة حيّة.

كانت شيماء بلون عينيها االزرقاوين الصافيتين وبشرتها البيضاء وطولها نموذجاً متفرداً في حي النصر، وحين تمر في ذهابها الى موقف الباصات كان الشباب في مقهى خليف الزاير يتهامسون... بنت مجمان... لم يقل يوماً أحد في المقهى... لقد جاءت شيماء.

بدأت اتعايش مع حالتي الجديدة، وأصبحت الحركة بعكازي اكثر يسراً، ولم تعد تشكل لي عائقا وأنا أذهب الى مقهى خليف الزاير الذي ليس لي بديلاً عنه، وكثيراً ما أطالع الصحف التي يحرص أبوالبرنيطة على وضعها على نحو تبدو عناوينها المثيرة ظاهرة.

تناولت ملف شيماء... كنت وأنا أمضي في قراءة الموضوع أشعر ان هذه الفتاة من حي النصر سيكون لها مستقبل... كان تنظيم الموضوع اكاديمياً وتحليل السياسة النقدية يستند الى الاحصاءات والنتائج المتحققة، وأخيراً اقتنعت ان الطرح متكامل، وهذا ما اخبرتها به في اليوم التالي، جلست قبالتي وهي تضع يديها على حجرها وكأنها ترغب في حديث آخر.

كانت أمي تجلس على الارض فيما صلى أبي وهو جالس، وبدأ سكون يلف حي النصر ويتقدم ظلام كأنه غبش داكن... نهضت شيماء لتتناول الشاي وتضعه امامي وتأخذ هي قدحاً صغيراً.. قالت: اعتذر ثانية لأني تسببت في ازعاجك.

قلت: لا بالعكس قد استمتعت ببحثك فهو مشوق ومضت مدة طويلة لم أقرأ فيها شيئاً عن الاقتصاد.

بدا لي إن ظلالاً لعلاقة ممكنة تشغل المسافة بيننا، هل سيكون هذا حافزاً كي أفكر بجد في العودة ثانية الى الحياة، أن أعود مثلاً الى الجامعة، ولم لا.. فالدراسة هي العمل المناسب الذي يلائمني الآن.

تذكرت استاذ اللغة العربية في الاعدادية، كان يعاني من اصابة تسببت بعرج دائم، ولكنه كان يمتلك شخصية طاغية بما يتمتع به من معرفة واسعة في اللغة العربية.

قالت أمي: شيماء هذا الخبز لكم وسلّمي على امك.

قالت: شكراً خالة.

شعرت لأول مرة بتعاطفي معها، وظل خيالها حاضراً في ذهني بحيث بت ليلتها افكر بها... كانت ليلة ربيعية ولكن القمر لم يظهر... مضى شطر طويل من الليل، حين سمعت اطلاقات بندقية كلاشنكوف متفرقة ولكنها سرعان ما توقفت، لم أذهب بفكري بعيداً فقد تراجعت هجمات السيارات المفخخة وتفجيرات الانتحاريين بعد تحرير الموصل وتوجه قطعاتنا العسكرية الى الصحراء الغربية، شعرت بالثقة لأني كنت هناك وتحسست مكان البتر في ساقي وفكرت... كان الامر يستحق، وحين خطرت شيماء في مخيلتي كنت أشعر بالنعاس، كانت عيناها تشعان بزرقة صافية كأنها صفحة السماء المفتوحة،

ويتموج شعرها الاحمر فوق كتفيها كنسائم ربيعية مفعمة بعطر شفاف ينتشر مرح آسر، على وجهها ظلال حيرة، وكأنها تتمعن في طريق بمعالم ملتبسة.

الفصل الخامس

لا يجب أن يخشى المرء من الموت،
بل من ألا يبدأ أبداً في الحياة
«ماركوس أوريليوس»

قبل رأس أبيه صباحاً وتوجه لمقهى خليف الزاير، كان يظن أنه مبكر وسيستمتع بقراءة صحف اليوم.

كان ابوبرنيطة يجلس الى صحفة ومجلاته وكتبه المتنوعة وحوله بضعة شباب، وفي المقابل كان عادل الاستراتيجي.

قال أبو برنيطة: مهلاً لتأخذ رأي المقاتل شاكر.

أعتقد انه يمزح فتبسم بود..

قال: نحن نناقش أمراً بالغ الخطورة... تعلم إن الانتخابات على الابواب والموضوع... هل نشارك في عملية الانتخاب أم نقاطعها؟

بادر عادل الاسترتيجي: ما هي قيمة المشاركة اذا كانت نفس الوجوه التي صنعت الحكومة الفاشلة ستعود الى الحكم...هل نحن بحاجة الى اربع سنوات من الفساد وسرقة المال العام وتخدير الشعب بالوعود.

صرخ ابوبرنيطة: ما هكذا يكون الحوار، أنت تسد الطريق على الرجل... الامر بأيدينا نحن من ننتخب.

قال عادل الاسترتيجي: وسيعودون.

- لا... قطعاً لا... إذا عرفنا كيف نتصرف.

- كيف؟

جلس شاكر على كنبة مجاورة، المقهى الذي كانت تضج فيه اصوات قطع الدومينا وهي تصطدم بخشب

الطاولة وصراخ ابوبرنيطة حين يحصل على الدوشيش ويحرك يديه بابتهاج طفولي.

ابوبرنيطة اليوم تشغله السياسة ويقطع بآرائه في أداء الحكومة ويتحدث في سلوك الاحزاب المنحرف.

- سنشكل فرق تتصل بالجهات التي تراقب الانتخابات وسنقدم لها ما سنقوم بتسجيله على الهواتف النقالة ومن جانبي ساكتب في الصحف التي تتعاون مع ركن الزاير الثقافي، تعلمون انهم ينشرون التحقيقات التي أعدها لهم.

قال شاكر: خطوة أولية مهمة ولكن سيظل صوتنا ضعيفاً، ومن اجل اعطاء الموضوع زخماً أكبر، اقترح ان نتصل بالشباب الذين نعرفهم في الاحياء الاخرى من بغداد لطرح الفكرة وكسبهم الى صفنا.

قال عادل الاستراتيجي: القوى السياسية على الساحة تم فرزها، فلماذا لا نتصل بأحد الاحزاب التي نثق بها.

قال ابو البرنيطة: مثلا.

- التيار الصدري والحزب الشيوعي والحزب الجمهوري وحزب الامة.

قال شاكر: أفضل ان نتصل بالتيار الديمقراطي، ويمكن منذ الآن ان نشارك في تظاهرات الجمعة.

قال ابو البرنيطة: موافق.

اعترض عادل الاستاتيجي وانضم اليه عدداً من الحاضرين.

قال ابو البرنيطة: لنلجأ الى حل وسط، نتفق على أهدافنا ويمكن ان يعمل كل منا على محاولة تنفيذها مع الحزب أو التوجه الذي يرغب في الانضمام اليه.

بدا أن ابوالبرنيطة قد اكتسب خبرة عملية من متابعته نشر تحقيقات صحفية، وهو الآن شخصية مختلفة عما كان يعرفه شاكر.

الحديث في الشارع وفي تظاهرات أيام الجمعة تدور في مجملها على ما يمكن ان يتحقق من تطورات بعد الانتخابات، وقد كشفت الاحزاب الكبيرة المشتركة في الحكم عن تخوفها وساورت قياداتها شكوك مبررة حول تغيّر مزاج الجماهير، ولهذا عمدت الى الاعلان عن تشكيل قوائم انتخابية للحزب الواحد.

ظل شاكر مشغولاً بالتفكير بأبي البرنيطة الذي ضمن لنفسه مركزاً قيادياً في حركة حي النصر وعبر مركز الزاير الثقافي، وقد عززهذا المركز قيام مراسلة القناة العراقية باجراء مقابلة معه حول النشاط الثقافي المتميز وبمبادرة شخصية منه.

كانت المراسلة تتجول في المقهى وتصور رفوف الكتب والصحف والمجلات، فيما كان هو يتحدث بهدوء عن تنامي هذا النشاط وتزايد عدد الحضور لاستعارة الكتب

أو لرفد المركز بكتب فائضة لدى سكان حي النصر، كما قامت بتوجيه اسئلة لبعض الحضور وختمت البرنامج بدعوة الشباب الى الاستفادة من هذه التجربة.

وفي يوم عرض البرناج ازدحمت مقهى خليف الزاير بالحضور وكان ذلك أشبه بتظاهرة كبيرة، وقد عزز ذلك من مكانة أبو برنيطة..في اليوم التالي اتصل ابوبرنيطة بالمراسلة ليشكرها وليقول ان لديه اقتراحاً مفيداً يمكن أن يخدم القناة الفضائية العراقية.

حين لخص لها مقترحه لم تستطع ان تستوعب ما يمكن ان يحققه المقترح، يمكن أن تجري سلسلة لقاءات مع رواد المقهى والمارة في الشارع، وان تذهبي الى المدارس الثانوية للبنين والبنات... ليس المهم أن تبث هذه اللقاءات، ولكن يجب ان تطبع بمجلة تصدر شهرياً وان تبرز المجلة صور المستطلعة آرائهم، وتقوم الفضائية العراقية بالترويج للمجلة مع لقطات سريعة... ستكون المجلة في دائرة تداول واسعة ويمكن ان تتضمن المجلة أحاديث في السياسة وعن منجزات الحكومة... سيقرأها الجميع بدلاً من ان يتجاوزها الشباب، في المجلات والصحف دعاية مضمونة.

قالت المراسلة: لا أدري سأعرض الموضوع على الجهات المسؤولة.

حين عرض شاكر الموضوع على شيماء وهي تعلمه بأنها حصلت على أعلى درجة في الصف عن تقريرها

«توجهات السياسة النقدية»

قال: حراك اجتماعي جديد قد يشكل البداية.

- ربما ولكن الطلبة يرون انهم الطليعة... وقيادة الحراك في المجتمع من مهامهم

- صحيح، ولكنهم في هذه المرحلة قبلوا ان يكونوا وراء التيارات السياسية الجديدة.

- تقصد الدينية؟

- نعم.

خالط شاكر شعوراً غامضاً بالتردد في المضي لمسافة أبعد في السياسة وانتبه لأمه وهي تعرض عليهما تجديد الشاي.

الشاي في بيتهم طقس ملازم، فأمه تضع إبريق الشاي على وعاء الماء الموضوع الى نار خفيفة، وبعد ان يتم الافطار تقوم بتجديده وتتركه حتى العاشرة صباحاً حين تعود من نوبة الصباح في اعداد الخبز، تقوم ثانية بتجديده بعد ان تتناول ثلاث اقداح صغير وتعطي أبي عازي اثنين للحفاظ على صحته، وفي المساء حين تعود من وجبة الخبز الاخيرة، تقوم بتجديده وحتى انتهاء العشاء حيث تقوم بغسل الاقداح ومعدات تحضير الشاي، وتضع الجميع في الصندوق الاسود الصغير.

قالت شيماء: لقد ألهاني الحديث عن سبب زيارتي... لدينا غداً في الكلية معرضاً للفنون التشكيلية

حيث يشارك مجموعة من تشكيلي بغداد وبعض الطلبة بعرض لوحاتهم.

قال شاكر: تعلمين غداً الجمعة، وقد اتفقت مع بعض الاصدقاء المشاركة في تظاهرات ساحة التحرير.

شعرت بشيء من الامتعاض الذي بدا في مسحة من عدم الرضا قلصت فمها.

قالت: معك حق ألا تحضر، المعرض يتبنى الفن التجريدي، وأجد نفسي ضائعة امام لوحات ليس من السهل فهمها.

- الموضوع لا علاقة له بشكل الفن لأني أعتقد إن الفن يعتمد على قوة الايحاء.

- على أية حال نترك الموضوع لفرصة اخرى.

ارتفع في الشارع صوت شخص يتحدث بمكبر للصوت، خرجا للوقوف على الموضوع.

«أعزاؤنا... نعيد عليكم دعوة السيد القائد للتواجد غدا في ساحة التحرير للتظاهر السلمي مطالبين بتحسين الخدمات ومحاربة الفاسدين واصلاح العملية السياسية».

قالت شيماء: أكيد أفضل من الوقوف أمام اللوحات التجريدية.

ابتسمت بشيء من الاستسلام لخسارتها الفرصة بأن يكونا مع بعضهما خارج البيت، وحين تحركت باتجاه

بيتهم شيعها شاكر بنظرة رقيقة متواطئة... حسناً انها فتاة تستحق الاهتمام...

الكهرباء التي تزور حي النصر على استحياء، تتوقف في الشوارع وفي البيوت لساعتين، ولكنها وهي تغادر الحي تكون عادة على عجل من أمرها، ويغرق الحي بظلام شامل، في حين تقوم المحولات بمحاولة التعويض فتمد بعض البيوت بضوء خافت دون ان تعيد تشغيل البراد وعادة يقتصر تشغيل المرواح على واحدة يتجمع تحتها سكان الدار، وعلى البلاط يتمدد الاطفال بالملابس الداخلية لاكتساب شيئاً من البرودة الكامنة في الارضيات، وقليلاً ما يتجول سكان حي النصر ليلا بعد انسحاب الكهرباء (ألوطنية)، وتعني الطاقة المزودة من كهرباء بغداد، وتعتقد نسوة حي النصر إن الظلام في الليالي التي يغيب فيها القمر، يشجع الشياطين الصغيرة على اللعب مع اطفال الجن، تابع شاكر سير شيماء متحفزاً وهو يقف وسط الزقاق، وحين رآها تطرق باب بيتها خفت مخاوفه وعاد الى البيت.

*****

شعرت بشيئ من الفرح وأنا ألحظ شاكر يهتم بشيماء وهي تبادله هذا الاهتمام، أنعش هذا في قلبي الامل من جديد، الامل يعيدني الى الحياة ويشعرني بالنشاط.

ليلاً كنت أفكر بشاكر وهو يزف... الأصدقاء فرحون

وانا ازغرد كما لم أفعل طوال عمري، قررت أن أوزع الخبز مجانا على زبائني... كنت أرتدي جلابية حمراء واسعة تلف حولي وأنا أدور الوّح بشيلة بيضاء، كان غازي يبتسم، وجهه تغمره موجة نور تكرر ظهورها على نحو متواصل، قال إعتني بأولاد شاكر، قلت نعم... سيفخرون بعمهم، شعرت بسكينة تسلمني الى النوم فيما تملكتني حالة من التفاؤل فقد انتهت ليالي الخوف التي سكنتني بعد عودة شاكر.

كنت عند التنور حين مر مجمان، كعادته كان حذاؤه العسكري لامعاً وسترته الكاكي الطويلة تضفي علية مهابة، فيبدو كضابط بريطاني كنت قد شاهدته في فيلم اجنبي، الضباط الامريكان مختلفون كما رأيتهم وهم يحتلون تقاطع الشارع امام التنور، كانت على وجوههم ملامح وقاحة وخالجني شعور انهم أكثر استعداداً للقتل فور رؤيتهم ما يرتابون به، لذا كانت نسوة حي النصر يتجنبّن الخروج ليلا.

قال مجمان: أم غازي البنات وديعة عندك.

- بالعين البنات وأمهم، لكن في المرة القادمة كن حذراً.

- ان شاء اللّه.

كانت نساء حي النصر اللواتي يتجمعّن احيانا عند انتظار دورهن، يتحدثن عن مجمان، وتدور قصص مختلفة

عن شخصه، ولكن الرأي السائد إنه شخص انعزالي ولا يبدو علية انه من النوع الانفعالي الذي يستجيب تلقائيا للمواقف العدائية، كما انه لم تتحدث أية إمرأة من حي النصر عن رؤيتها اياه متسللاً من البيت، رغم انهن لم يعتقن معظم الرجال في الحي من ذلك، وكان الغموض الذي يحيط بشخصيته وعدم اختلاط زوجته وبناته بسكان الحي ظل حديثاً مكرراً الى ان تم تجاوزه بعد انتهاء كل ما يمكن ان تنبثق عنه خيال نسوة حي النصر.

خرج شاكر، كان يرتدي قميصاً نصف كم بمربعات زرقاء وبنطالاً كاكي.

قال: صباح الخير، ساذهب الى مقهى خليف حيث سنتجمع للذهاب سوية الى ساحة التحرير.

شعرت بانقباض مفاجئ، ساحة التحرير في يوم الجمعة تعني سياسة وتعني خصومة معلنة مع الحكومة، عادت صورة غازي تسد الفضاء ولم انتبه للخبز الذي بدأ يحترق.

مرت ساعات طويلة قبل ان يمر الباص الصغير الذي يحمل مجموعة من الشباب وهم يلوحون بالاعلام العراقية ويغنون بصوت جماعي بكلمات لم اتبيّنها، ولكن النغم الذي كان يجمع اصواتهم كان متناسقاً بحماسة ظاهرة، كان شاكر يجلس في المقدمة الى جنب السائق فيما يلوّح ابوبرنيطة بيده، لحظت ان الباص يخلو من

ايـة فتـاة ترافقهـم، قـرأت سـورة الفاتحـة ودعـوت اللّه أن يحمـي الشـاب، فليـس في الحيطـان المطلـة علـى الشـوارع متسـع للقمـاش الاسـود الـذي يخـط عليـه اسـماء مـن أخذهم المـوت.

السـاعة الخامسـة ولـم يعـد شـاكر ومـن بعيـد مقهـى خليـف الزايـر ليس فيهـا علـى الكنبـات الخشـبية غيـر عـادل الـذي يكنيـه شـاكر بالاسـتراتيجي، يمسـك جريـدة دون أن يفتحهـا ليقـرأ فيهـا، هـو الآخـر يبـدو قلقـاً رغـم محاولتـه ان يبـدو غيـر مبـال، عـادل يعتـرض علـى التحالـف بـين الشـيوعيين وجماعـة السـيد، يقـول شـاكر: معـه بعـض الحـق مـن الناحيـة المبدأيـة... لـم افهـم مـا يعنيـه، فالموضـوع مقبـول او غيـر مقبـول، والسـيد يريـد ان يوسـع نفـوذه في العـراق، فكـرت إن علـيّ أن ابتعـد عـن الانشـغال بعـودة شـاكر لأن الامـر يعيـد لـي الافكار السـوداوية، والعـودة الـى أبـي غـازي سـتوتر اعصابـي ايضـاً فهـو منـذ يومـين بمـزاج غاضـب.

حملـت عشـرة أرغفـة مـن الخبـز المتبقـي وذهبـت الـى بيـت مجمـان، اسـتقبلتني البنـت الصغـرى، كانـت عينانهـا عسـليتين وشـعرها اسـود تشـده الـى الخلـف بظفيـرة وعلـى وجههـا لمحـة فـرح تتفـح بابتسـامتها العريضـة.

- تفضلي خالة أم غازي.

اسـتقبلوني ثلاثتهـم بارتيـاح وبرغبـة واضحـة في ان يتحدثـوا الـيّ في وحدتهـم في البيـت، شـعلتني احاديـث

الاستقبال الحار بعض الشيء ولكن سؤال شيماء هل عاد شاكر أرجعتني ثانية الى التفكير بساحة التحرير وما قد يقع لهم قالت خديجة وهي البنت الصغرى لماذا لا نفتح التلفاز فقد تنقل بعض القنوات ما يقع في ساحة التحرير، قالت شيماء ربما قناة الشرقية تتابع هذا الحدث... على الشاشة كانت جموع كبيرة محتشدة تحت نصب الحرية وفي المسارب المتفرعة عنها وكانت مجموعات من قوات الشرطة وعساكر لا أعرفهم مقنعين وبأيديهم هراوات وتروس بلاستيكية كأنهم رجال آليّون يقطعون جسر الجمهورية، أصوات مختلطة ولافتات كبيرة تطالب بالكهرباء والوظائف والماء النظيف واشياء اخرى عديدة، الجموع تتقدم ببطئ الى شارع الجمهورية وتدفع بالشرطة والرجال الآليين وهي تزحف، أفلت بضع عشرات وركضوا فوق الجسر باتجاه المنطقة الخضراء... اطلقت بضع زخات من الرصاص الامر الذي تسبب بهياج الجماهير الغاضبة.

جلسنا مشدوهين امام الشاشة...

انهار السد أمام الجسر واندفعت الجموع تركض بحالة من الهياج والهستريا، قلت لا أريد أن أشهد المزيد، علي أن أعود فأبوغازي وحيداً وهذه المناظر تبعث في رعباً مجنوناً.

لم يشيعني أحد منهم الى الباب، كانوا هم ايضاً

مأخوذين.

تاخر شاكر في العودة حتى السابعة مساء، كان مجهداً، فكرت انه واصحابه ليسوا سوى مجانين لأنهم يريدون تغيير مسار الحكومة بدون رضاها، انهم يعملون خارج حدود الواقع... خارج الزمان والمكان... لقد حدد الله لكل إنسان مسيرته والحكومة لا تغير مسارها إلا حكومة اقوى... لقد غيرالامريكان صدام حسين، ألم تقاتله كل الجماعات في العراق وفشلت... هكذا حال الحكومة اليوم.

قال شاكر: كان يوما عصيباً... لقد اثبتنا لهم انهم غير قادرين على حماية حصونهم... لقد دخلت الجماهير الى مجلس النواب.

- نعم رأيت بعضاً من ذلك ولكن ما هي النتيجة... أنت تعود الى البيت والحكومة ستنظف ما اتلفتموه، وغداً ستمضي الحياة بمسارها بعيدا عنكم.

نظر شاكر نحوي بامعان - على الرغم من إن كلامك محبط إلا ان فيه بعضاً من الحقيقة... لم أعرف أن التنور يمنح ثقافة سياسية!

شعرت بإحراج فهو يسخر مني.

- لقد سألتني شيماء عنك.

أشرق وجهه بإضاءة غمرته للحظة نسي معها الجماهير الراكضة الى المنطقة الخضراء.

- متى؟

- كنت ازورهم عصراً.

شعرت ان مشاعر غاية في العذوبة تملأه فقد نظر نحوي بمودة وحب.

- حسنا سأحاول أن أنام فأنا متعب.

مر في خاطري أنه يريد أن يخلو الى همس مشاعره الذي يبعث احساساً بالحياة والعودة الى نفسه، ولكن بتغيير بسيط هو الايجابية في نظرته للحياة.

الفصل السادس

الأمل حلم الانسان المستيقظ

(حكمة يونانية قديمة)

كانت التجربة الاخيرة لربط الساق الصناعية ناجحة، قال الفني في معمل الأطراف الصناعية انه يمكن لشاكر أن يعود يوم الثلاثاء لتركيب الساق وبدء بعض التمرينات الضرورية، الساعات الاولى للتدريب كانت متعبة تماما فقد تسببت بآلام حادة في موقع البتر، أشكل على ساقه الهاربة ما تسببت له فيه بهذا الوضع المؤلم.

في عودته الى البيت كانت مجموعة من الاليات تعمل في تسوية الطريق الترابي الذي يمتد بين الشارع العام الذاهب الى بعقوبة، وحي النصر، وفي نهاية شهر أيلول كانت الحرارة ما تزال مرتفعة والأرض الترابية الهشة كانت تدفع بموجات من الأتربة الناعمة التي شكلت غيمة تلف حي النصر بكامله، لم يكن الموضوع معلنا عنه، حتى إن أبا برنيطة حين توجه بالسؤال الى مدير القسم البلدي عما يجري أجاب بأنه لا يعرف شيئا وإنه بصدد سؤال محافظة بغداد ودائرة الأمانة للوقوف على سبب هذه الاعمال المفاجئة.

وجد شاكر نفسه وقد لفه غبار بلونه الترابي حوله إلى كائن غريب، سيما وهو يعرج قليلا بسبب الساق الصناعية ، تذكر ساحات التدريب المفتوحة وعرفاء التدريب بنظراتهم القاسية وملامحهم الموارية وهم يطلبون من المتدربين الزحف في ممرات ترابية خافظين رؤوسهم، تسد الاتربة المتصاعدة أنوفهم، كانت فعاليات

عبثية، ففي حي الزنجيلي كانت الارض مرصوفة بالآجر أو مبلطة وكانت البيوت المتلاصقة والأزقة الضيقة لا تسمح للغبارأن يدخل الى الحي.

أسرع شاكر بالدخول الى مقهى خليف الزاير ليستريح قليلا، لم يكن غير فاضل ابو البرنيطة يجلس القرفصاء على كنبة خشبية عليها حصير متاكل وبيده جريدة لم يباشر قراءتها فيما خليف يقلب بعض الفحم وهو مقطب، على الإفريز الداخلي في الجانب الايمن بضعة عصافير صامتة تتطلع باستغراب وهي تمد نظرها الى الشارع، وحين دخل شاكر كان رد فعلها سريعا فقد انطلقت خارج المقهى.

قال أبو برنيطة: أنت جئت؟

قال شاكر مازحاً: لا.

قال ابو البرنيطة: حتى العصافير تهرب منكم.

قال شاكر: من نحن؟

قال ابو البرنيطة: جنود الأمة العربية.

قال شاكر: هل بدأت تتعاطى...

- لا، ولكن هذا ما وجدته مناسباً.

جلس شاكر وهو ينفض الغبار ويمسح عينيه، أشار الى خليف محركا يديه كانه يحرك الملعقة في قدح الشاي.

قال أبو البرنيطة: ماذا يفعلون، لقد انعدمت الرؤية

واشعة الشمس تموت في طبقات الغبار.

قال شاكر: لقد بدأت تكشف عن مواهب شعرية.

قال خليف مشاركا في الحديث.. كان جده أبرع من يبتكر (الهوسات)، وكان الشيخ يستدعيه كلما أراد ان يغزو إحدى العشائر، يقف في باب الديوان ويبدأ اولا بالقاء شعر يحرك فيه حماس الرجال وينهي تردد بعضهم ثم يبدأ بهوسات تجعلهم يدبكون الارض بقوة وهم يدورون حوله، حينها يطلب منه الشيخ أن يجلس ويأمر له بالقهوة.

- ولهذا اقوم اليوم بالذهاب الى ساحة التحرير، الولد على سر جده.

بدأ الغبار يخف وأصوات معدات أمانة العاصمة تبتعد وبان الشارع مطبات وتلال من الأتربة.

قال خليف الزاير: متى سيعودون؟

قال شاكر: ربما بعد أشهر.

حين قال شاكر ذلك كان يستذكر الشارع الذي يربط تقاطعات حي الهندية في النجف، كان في زيارة لبيت عمه هناك وشاهد أربعة تقاطعات بأربعة اتجاهات كلها مفتوحة بعمق ثلاثة أمتار وأكوام الأتربة مكدسة بامتداد حوالي مئتي متر لكل شارع... كان ذلك في عام ٢٠٠٨ وفي عام ٢٠١١ ظل الحال على وضعة ولكن الأخاديد كانت مملوءة بالقمامة التي يرميها أصحاب المحال التجارية والبيوت القريبة، كما تسببت في عدد كبير من الحوادث.

قال ابو برنيطة: أنت متفائل... الشارع المتفرع عن شارع قناة الجيش ينافس في الأيام الماطرة نهر دجلة بعد انشاء السدود التركية، وعندما يعبر القمر سماء بغداد يكون النهر الجديد لاصفا بلون أسود داكن...ربما تسكنه الحيتان التي تدبر كمينا للقمر لتأسره.

حين تبدأ الدوائر الخدمية او المتعاقدين معها، يتوقف الزمن عند الأيام الاولى للعمل، ربما تنسى الدوائر الخدمية ما بدأته، أما الشركات المتعاقدة فانها تقرربعد استلام المبالغ المخصصة للمشروع أن أفضل ما يمكن ان تفعله هو الإختفاء تماما، وما يتبقى خلفها هو رائحة النفايات التي تتكدس يوميا في الخنادق التي تحفرها بعناية وأحاديث صحفية عابرة عن شركة متواطئة أضيفت الى عشرات الشركات الهاربة.

لم ينتبه ابوبرنيطة أو خليف الزاير الى إن البنطال الذي كانت ساقه اليسرى فارغة قد امتلأ، ولم يرغب شاكر أن يعلمهم انه قام بتركيب الساق الصناعية.

بدأ رواد مقهى خليف الزاير يتوافدون بضجيج.

استأذن شاكر مغادراً.

بدت الشمس شاحبة وشعر بهبة هواء حملت معها موجة غبار، أغمض عينيه وتقدم جنب سياج الدور المنخفضة، الطريق خال من المارة فقد أرعبهم الغبار فاحتموا بمنازلهم، السماء ما تزال تلطخها سحابات

متقطعة من الغبار.

فتح الباب بهدوء، كانت أمه تجلس مقابلة الباب بنظرة ثابتة، فيما أبوه يتطلع بنظرة تائهة دونما تركيز وفمه تحت شواربه الكثيفة المتدلية على لحيته مفتوحا كمن يهم بكلام خطير.

جلس الى جنب أمه...

- كيف هي أم غازي؟

- بخير... مثل شمّر.

- ولكن والحمد لله الخام موجود والطعام متوفر والخبز يذهب حتى الكرخ.

- نعم.

- كيف أبي؟

- يقلقني... بعد ان خرجت شيّعك بنظرة طويلة وعاود التحديق بصورة غازي، لحظت انه يبكي، لم اشاهده أبدا بمثل هذه الحال منذ تعرفت عليه قبل أربعين سنة.

قام شاكر من مجلسه وقبل رأس أبيه.

- بحاجة الى بعض الشاي، فمي ما يزال يملؤه الغبار رغم شربي شاي خليف الزاير.

وهو يدخل غرفته لاحت له شيماء، عيناها الزرقاوين فيروز صاف، شعر بارتياح، أبدل ملابسه ونزع الساق الصناعية وتمدد على سريره، تملأ مساحة خياله شيماء،

النعاس يتقدم ببطئ لتضيق مساحة الخيال وتغفو شيماء في أحلامه.

في الصباح شعر بنشاط، تناول افطاره وجلس الى جهاز الكومبيتر، بعد جولة سريعة على الصحف فكر ان يطلع على تفاصيل عن الدولة المدنية التي كانت واحدة من الشعارات الاكثر حضوراً في ساحة التحرير، أعجبه ماتوصل اليه جان جاك روسو وشعر باسف انه يعود الى اكثر من اربعمائة سنة ليعرف موضوعاً تحمله شرائح مختلفة من المتظاهرين.

كانت شيماء تقف عند أمه.

- اشتريت جهاز كومبيوتر واحتاج الى برمجته، وقد يستطيع شاكر معاونتي.

- انه في الداخل.

كان هذا بمثابة موافقة لأن تدخل عليه.

*****

حين وقفت عند باب الغرفة المفتوحة على الشارع عبر البوابة الرئيسة لبيتنا،كان قوس قزح يعبر المسافة التي ينفتح عليها الباب، تطلق الوانه فرحا غامرا يسكن سماء حي النصر، كانت ترتدي قميصا بلون عينيها الصافيتين وتنورة نيلية مكوية بعناية وتضع على رأسها شالا شفافا من البوبلين... كانت هذه المرة الاولى التي أشاهدها تفعل ذلك، داخلني شعور بالغبطة والسعادة،

في الجامعة كنت التقي بالعديد من زميلاتي وكنت اتبادل معهن الحديث أو نناقش بعض المسائل في الاقتصاد او السياسة، إلا إن أي منهن لم تحرك مشاعري على هذا النحو الذي يدغدغ أعماقي ويدفعني الى الابتسام برضا غامر.

تمالكت مشاعري وانا اقول لها:

- تفضلي.

- آسفة فقد تكون مشغولاً.

- لا... كنت أراجع بعض المعلومات وليس أمامي الا مقهى خليف الزاير.

- امس ليلاً جاءني ابي بهذا الحاسوب اللوحي وهو يختلف عن الكومبيوتر القديم في مكتبة الكلية، ارغب في تشغيله.

- لا بأس تفضلي بالجلوس وسأغذيه بالبرنامج.

- شكراً سأذهب للحديث مع خالتي أم غازي وحين تنتهي منه نادني.

- لا تشعري بالإحراج وخالتك ام غازي مشغولة بخبزها وزبائنها، كما إنه من المهم متابعتك ما سأفعله لتوفّري عليّ الوقت ولتقومي بتشغيله وحدك لا حقاً.

ابتسمت بشيء من الدلال.

- صحيح...

أمنت على كلامي وجلست بهدوءعلى الكرسي الى المنضدة المرصوفة الى الحائط، اشاعت دفئاً عاطفياً، عدلت تنورتها التي صعدت قليلاً وهي تجلس.

شملت الغرفة بنظرة مستطلعة وراحت تستطلع أسماء الكتب المرصوفة على رفين خشبيين.

- واضح انك ترغب في الكتب الاقتصادية.

- ليس بالضرورة... ولكن كما تعلمين فدراستي الجامعية كانت في الاقتصاد.

نظرت نحوي بتخابث.. هل تقرأ الروايات ايضاً.

- طبعاً... وأختصر عليك أنا أعشق همنغواي.

- لم أقرأ له... فهو من جيل سابق.

- إذن انت تقرأين الروايات.

- في ليل حي النصر الطويل والوحدة التي نعيشها، ليس أمامي غير المسلسلات التركية المكررة وقراءة الروايات.

- ومن هي المفضلة لديك؟

- كنت اتابع غادة السمان والآن احلام مستغانمي.

وحين رأت تقطيبة عابرة قالت: ماذا، ألا تروقان لك؟

- السمان ربما تروقني، ولكن مستغانمي تذكرني بالمسلسلات التركية حيث تزدحم بالعلاقات المشبوهة التي تشكل هدف المسلسل وليس امراً عارضاً.

لم يرقها كلامي، قالت: ربما تسنح فرصة أخرى للحديث في هذا الموضوع.

- فعلاً... الحاسوب جاهز للاستعمال... هل تعرفين انزال حسابك به؟

نظرت نحوي وهي تمد يدها لأخذه.. نعم.

حين خرجت غردت مجموعة من العصافير على السياج وهي تنطلق باتجاهات متفرقة.

أغمضت عيني أمسك بصورتها فيما لاح قوس قزح أكثر إشراقاً ليملأ غرفتي بألوان بهيجة وشعرت بتموجات الحياة وبدفق حار في قلبي يتردد بصوت خلت ان العالم يسمعه.

تحدثت مع أمي وهي تشير الى جهاز الحاسوب وتوددها... قالت أمي وهي تسد الباب بجلابيتها السوداء: لماذا لم تقدم لضيفتك الشاي؟

- لم يخطر ذلك على بالي.

- في المرة القادمة دعه يخطر على بالك.

وهي تستدير عائدة الى التنور قالت: بالأمس لم أخبز الا نصف الكمية ورميت العجين المتبقي في مكبّ القمامة... لا وفقهم الله في الأمانة فقد حفروا الشارع وقطعوا الطريق أمام السيارات القادمة، لماذا لا تراجعون البلدية؟

- فعلاً... على الشباب ان يراجعوها.

في الركن الثقافي في مقهى خليف الزاير كانوا مجتمعين حول أبي برنيطة وشاب ملتح بعمامة بيضاء لم أشاهده من قبل، كانوا منهمكين في وضع صيغ الشعارات التي سيتم خطها على اللافتات التي سترفع في تظاهرة الجمعة.

حين هدأ الحديث قلت: حي النصر اليوم شبه مقطوع عن بغداد بما تسببت به الأمانة، اقترح أن نذهب لمقابلة أمينة العاصمة.

لقى الاقتراح ترحيباً، عادل الاستراتيجي وحده الذي اعترض قائلاً بنبرة حادة.. نحن ننتقل من العام الى الخاص... نترك الكهرباء والماء لبغداد والعراق لنحصر مطالبنا بحي النصر.

تذكرت بيتاً للجواهري:

يا دجلة الخير قد هانت مطامحنا... حتى لأدنى طماح غير مضمون.

قلت: الخاص يؤدي الى العام، فلماذا لانجرب؟

قال الشيخ وهو يرفع عمامته - معك حق... هذا يهم كل أهالي الحي وفي تقديري تستطيع الأمانة تنفيذ مطلب رفع الاتربة وتسوية الخندق قبل حلول موسم الامطار.

أمّن أبوبرنيطه عل كلام الشيخ واتفق الجميع على اللقاء الخميس لمعاينة اللافتات.

كنت قد شربت كأسين من نومي البصرة، فانا لا أشرب الشاي في مقهى خليف الزاير، محافظاً على طعم الشاي الذي تعده أم عازي.

قبل أن أخرج من المقهى ناداني أبوبرنطيه - شاكر... لا تنسى إن السماء الزرقاء لا تمطر.!

كانت (حسجة) فهمت المقصود منها.

قلت: نعم.. ولكنها صحو.

قال خليف الزاير: هذا ما كانت تفتقده المقهى... إنه أحسن من حديث السياسة.

لم أعلق، ولكني شاهدت أبي البرنيطة كأنه قد فوجئ بالرد، وربما لم يكن يعتقد إني سأفهم ما يرمي اليه، فهو القادم من الرميثة حيث ينتشر هذا اللون من الحديث المبطن لدى السكان هناك، ربما أكثر من بقية مناطق العراق.

قالت أمي: علينا ان نهتم بأبيك.

- كيف؟

- سنجلس معه هذا المساء، وقبل ذلك أرجو أن تساعدني بتحميمه.

- إذاً دعيني أذهب الى السوق لشراء جلابية جديدة وشماغ، فالمحال ما تزال مفتوحة.

- بارك الله فيك.

الطريق الى السوق الرئيس في حي النصر لم يكن يبعد عن دارنا إلا بضع دقائق مشياً، ولكنه وبسبب التضاريس التي صنعتها معدات الأمانة يحتاج الى نصف ساعة على الاقل.

سوق حي النصر شارع كان في يوم ما مكسوا بالإسفلت، و لكنه اليوم كما يقول المثل (من كل زيك رقعة)، والمحال المنتشرة بامتداد الجانبين متنوعة، بائع خضار... محل حلاقة... خياط... بائع اقمشة... بائع ملابس مختلفة قادمة من الصين تحمل مواصفاتهم، فهي ضيقة وقصيرة وعلى المشتري ان يطلب قياساً أكبر من القياس الذي اعتاد استعماله، ما يميز سوق النصر أيضاً انك تجد فيه العديد من السلع المنوع تداولها، وهي إما معروضة علناً او أنك تطلبها من صاحب المحل، أحياناً يزعق البائع وهو على باب محلة، لا تترك زوجتك تنام زعلانة... بيده مجموعة من أشرطة حبوب بألوان زاهية، ولكن أغرب ما سمعته وكان ذلك قبل التحاقي بالجيش ما كان ينادي به أحد الباعة.

- تخلص من عدوك بمئة وخمسين الف دينار.

كان بيده رمانة يدوية، ويتابع...

- انها أسهل من استعمال الكلاشنكوف ومضمونة تماماً... فقط اسحب صمام الأمان واقذفها، ويا دار ما دخلك شر.

كان السوق عصر هذا اليوم هادئاً تخيم عليه سكينة طارئة، كما كانت حركة التسوق متراجعة والباعة يجلسون على الدكات عند أبواب محلاتهم.

- ماذا يجري؟

سألت أبوعبد الصاحب وهو بائع خضار كان معي في الابتدائية، ولكنه ترك الدراسة لوفاة أبيه وعدم وجود معيل للعائلة.

قال: لاشيء.

كان يتملص من الاجابة، شاهدت أشخاصاً يتجولون مدققين في الوجوه.

قال بائع الجلابيات: لا بد من أن اغلق المحل اليوم... قد يشتعل السوق بعد دقائق والله الستار.

حين رآني أتطلع مستفهماً قال: قتل الكرامطة ابن الشيخ حميد حين مروره بالقرنة، ولهذا فعشيرة الشيخ حميد تبحث عن الكرامطة الساكنين في حي النصر.

- ولكني لم أسمع انهم معنا في الحي.

- العام الماضي هاجر كثير منهم بسبب قتالهم في البصرة مع الحلاف.

دفعت ثمن الجلابية والشماغ وصندلاً جلدياً بسرعة وعدت الى البيت.

قلت لأمي ان تحكم اغلاق الباب تحسباً للطوارئ.

قالت: العراق لم يعد آمناً.

نظرت نحوها باستغراب، أم غازي تتوصل الى نتيجة خطرة، حين رأى ابي الملابس ابتسم وأغمض عينيه ربما يتذكر ايام كان يعود لنا بملابس العيد... مر من امام البيت بائع الغاز كان يقود عربة يجرها حصان هرم والى جانبه مكبراً للصوت مربوط الى جهاز تسجيل يعيد ذات العبارات التي تعلن عن وجود قناني غاز أصلية وليست ايرانية، وتخلل نداءاته مقاطع من أغان شعبية لداخل حسن وهو ينوح بصوت ملؤه الشجن، وغالباً ما يتجمع وراءه الاطفال وهم يتراكضون ومعظمهم حفاة.

انشغلت أمي بتسخين الماء رغم حرارة الجو، جلست بالقرب من أبي اشرب الشاي قالت أمي: يمكن ان تساعدني في نقله الى الحمام.

كنت اسمع أمي وهي تطرطش الماء وأبي يضحك، واخيراً نادتني أن أحضر لها الملابس الجديدة، كان أبي طويل القامة أسمر البشرة، ومن الواضح لمن يراه انه كان يتمتع بقوة وصلابة تبدو في التفاف عضلات ساعديه.

جلس على الكنبة في عينيه ابتسامة صامتة، واشار الى أمي يريد شاياً، مد يده الى فمه، قلت لها يريد طعاماً.. غرفت أمي بضع ملاعق من قدر الرز، هز رأسه رافضاً.. وأشار الى الخبز المغطى بقطعة قماش بيضاء.

قالت أمي: كان يفعل ذلك كلما خرج من الحمام..!

حين أعلن المسجد القريب آذان المغرب بمكبرات الصوت اليابانية الجديدة والتي تم تركيبها من قبل عضو البرلمان بدلاً من المكبرات الصينية القديمة، ارتفع صوت الرصاص في سوق حي النصر.

الفصل السابع

إثنتان لا يجب اخفائها : الحب والحقيقة

حين افاق شاكر في الصباح الباكر كانت الشمس ما تزال خلف الأفق، حين تمطّى في فراشه شعر بأنه يشم رائحة العطر النسائي الذي كانت تضعه شيماء، ردد في سره سأشتري لها عطراً آخر، عطر هدى الطالبة في الشعبة (ب) في قسم الاقتصاد، ابتسم وهو يرى وجه شيماء وهي ترفض أن تضع عطراً اشتمه على امرأة ثانية، لن يقول لها ... سيشتري العطر على أساس أنه استمع الى نصيحة أحد زملائه، قد تجد انه يتداول الحديث عن الفتيات مع زملائه، حسناً سيقول لها ان البائع هو الذي نصحه لأن هذا الصنف هو المودة الدارجة.

تمنى لو يلمس شعرها الأحمر المنسدل على كتفيها، لن يدعها تغير اللون فهو منسجم تماما مع بشرتها.

كانت أمه تناديه.. ارتدى قميصه على عجل.

كانت تدعوه أن يفطر لأن عليها أن تعالج العجين، تطلع الى وجهها الأسمر الذي بدأت غضون خفيفة تشغل مساحة تحت العينين.

قالت: ألن تذهب اليوم الى مقهى خليف؟

- ليس الآن... لدينا في المساء اجتماعاً مع الشيخ صالح من جماعة السيد.

- ماذا..؟ هل تفكرون في صلاة الجمعة في الجامع.

- لا سنناقش موضوع الانتخابات.

- وما علاقة السيد بها، هل سيشتغل مع الحكومة.

- اهتمي بالخبز واتركي عمل الرجال.

- صور النساء تملأ الشوارع... حين سألت وكيل الحصة قال بأنهن مرشحات للانتخابات... هل عند السيد نساء ايضاً؟

- نعم لأن هذا أمر الحكومة..! وستذهبين لانتخاب احداهن.

- سأنتخب شيماء فهي متعلمة ومن حي النصر.

- ولكنها غير مرشحة.

- نرشحها وننتخبها حتى وإن أصرت أن تظل سافرة..!

مع دفقات هواء مفاجئة انتشرت رائحة التراب.

- كل شيء يتغير... نسوان في الحكومة... عجايب، اكيد نحن في آخر الزمان.

- من علامات آخر الزمان أن يكون رئيس الوزار من حي النصر، أحد اولئك الذين كانوا يركضون حفاة وراء سيارة رش الديديتي.

- ولماذا لا تكون أنت، والله قادر على كل شيئ.

كان على الباب ابوبرنيطة، أشار اليه أن يدخل، قال لا... يفضل أن يمشيا قليلاً فلديه حديث خاص معه.

بدا صوته جاداً على نحو مبالغ فيه وهو يتحدث هامساً.

- سيحضر اللقاء مساء الشيخ صالح ليس بصفته

الشخصية، ولكن بصفة مندوب من السيد مباشرة.

- لا بأس.

- لا... هناك بأس، أنت تعلم إن الانتخاب مسألة شخصية ولا نسمح بحشر الناس ثانية في مربط واحد.

- مربط واحد..! ألست معي إنه تعبير شديد القسوة.

- ربما... أنت تعرف ما أرمي اليه.

- ولكني لن أحضر.

قال ابوالبرنيطة باستغراب وتوقف عن المسير، لم يكن يتوقع هذا الرد - ماذا.؟

- كما سمعت... لقد انحرف طريقي عن اهتمامات مقهى خليف الزاير والمركز الثقافي... الانتخابات لم تعد تهمني رغم إني سأنتخب.

-ولكن الجميع مقتنع بانك ستتولى اللجنة المقرر ان تعمل في الدعاية للتحالف الجديد في حي النصر.

كان صوت ابو البرنيطة متسائلاً بحزن وبخيبة أمل وبدا غير مصدق، ربما شاكر يمزح، ولكن الجواب القاطع كان واضحا، سيكون الامر محرجا له فقد عمل بجد ليوافق الجميع على ان يترأس شاكر لجنة الدعاية والاعلان.

- يؤسفني ان أخيب أملكم.

*****

شعر شاكر بأنه ايضاً تفاجأ بهذا القرار فلم يكن قد فكر فيه، ولكنه قفز بدون تفكير الى لسانه ليعلن موقفاً جديداً، اين سيتجه..؟

ترك أبو البرنيطة ماخوذا بحيرته واتجه الى موقف التاكسي الذاهب الى شارع القناة، ربما سيكون لديه وقتاً كافياً ليقابل الدكتور فالح، لمحة من ضياء أنارت فكره، ان يلتحق بدراسة الماجستير.. بعض الافكار تظهر فجأة كنبات شيطاني، تتسلق مسرعة وهي تتشبث ربما بجوانب اللاوعي في فكر الانسان، تغدو مورقة تمد ظلالاً أكثر خضرة واشد لمعاناً من أشجار الليمون في نهار ربيعي انكشفت فيه للشمس بعد صباح ماطر، تذكر النخلة التي تقف زاهية عند السياج الأمامي لبيتهم، كانوا يقومون بتوضيب اثاثهم في البيت، جاءتهم جارتهم بصينية عليها تمر وخبز وابريق شاي، قال ابوه مازحاً: تمر وشاي... كان هذا في الحرب العالمية الثانية حين فرضت المانيا حصارها البحري على بريطانيا، قالت امه - إحمد الله يا رجل لدينا جيران يعرفون الاصول.

كانوا يرمون (النوى) في الساحة الترابية الأمامية، بعد شهر شباط، ظهرت ورقتان خضراوان عند السياج، قال أبوه - بشرى خير.

قالت امه: ستكون نخلة (شيص).

تسائل غازي.. ماذا يعني هذا.

قال أبوه: أي انها غير مثمرة، وان أثمرت فهو غير صالح للاكل.

النخلة الآن تلامس السياج ويتدلى سعفها الى الخارج، يجلسون تحت ظلها أحياناً لشرب الشاي بعد ان رصف أبوه الساحة الترابية بطابوق عريض.

فكر بأنه غير ملزم بتقديم تبرير لأحد، وبسرعة قام بجرد لوضعه المالي، الراتب التقاعدي... يقوم الآن بتوفير أكثر من نصفه، والمكافأة التي حصل عليها جراء الاصابة وضعها بحساب توفير، ما عليه الآن سوى الحصول على موافقة الجامعة والبدء بدراسة مكثفة للغة الانكليزية.

قالت أمه: انت اعرف بامورك.

حين تقدم نحو البيت كانت أمه تعالج خروجها من الباب الى التنور، سعف النخيل الجاف واخشباب مختلفة من صناديق والواح تالفة محزونة في غرفة صغيرة في واجهة المنزل لحمايتها من ماء المطر ومن السرقة، الحمولة كانت تغطي وجهها فلم تشاهده، مد يده لمساعدتها، جفلت وتراجعت الى الخلف وحاولت ان ترفع رأسها فيما خفضت يديها قليلاً.

- أمي أنا شاكر..

- تصورت ان بعض الاطفال يعبثون، يسرقون جريد النخل ليمتطوه حصاناً يدورون به في الزقاق مخلفين وراء هم موجة غبار، ولكنهم مستمتعون... الخيل حلم الرجال،

ولكني كنت في القرية أحسن ركوبها، صحيح ان حصاننا كان عجوزاً ولا يركض ويمشي خببا، الا أنه يبقى حصانا تتهيب الفتيات امتطاءه، كان لشرطي في الخيالة وعند تقاعد الاثنين ذهب الشرطي الى السليمانية ليستقر مع اهله وتم بيع الحصان في المزاد العلني، اشتراه السركال عودة بخمسة دنانير ولما وجد انه لا يجري باعه لابي بثلاثة دنانير، عمل الحصان في جر المحراث وفي نقل الحطب والمشاوير القريبة في ايام المطر .كنت اذهب به الى ابي او اعود به، المسكين تدمع عيناه باستمرار وكانه يلعن القدر الذي جعله يظل على قيد الحياة ليعيش كل هذا الذل، فاتحت ابي بذلك فاخذ يعطف عليه وخفف من ساعات عمله وقدم له الاعشاب وكسر الحنطة،يوم مماته حزنا انا وابي كثيرا فيما كانت امي وأختي تتندران بهذه العاطفة التي نزلت فجأة علينا.

- ماذا أردت أن تقول..؟

توجهت أم غازي الى شاكر وهي ما تزال تحمل سعف النخيل والاخشاب.

- ليس الآن... انتهي من هذا أولاً وبدلي جلابتك، فقد تحولت بلون غسيل صحون الشاي.

- ضحكت...

- من أين تأتي بهذه الاوصاف؟

- لم أكن اعرف انك فارسة ايضاً.

- ما يزال الكثير لا تعرفه يا إبن ام غازي.

وقف ينتظرها على الباب الى ان صفت الحطب جنب التنور، وعادت لتغسل وجهها، دخل الى غرفة المعيشة الكبيرة وجلس على كرسي هزاز سبق ان اشتراه من سوق مريدي، فرح به ابوغازي وأصر انه لا يسمح لأحد غيره بالجلوس عليه، كان يسارع الى الاسترخاء على الكرسي وبيده قدح الشاي ليتابع مسلسلاً يعرفه العراقيون باسم بطلته (كوالا لبّي).

عادت ام غازي، جلست الى عدة الشاي، الاقداح الشفافة تعطي لون الشاي عمقاً اخّاذاً بلون العقيق الصافي.

- عندك ما تريد الحديث عنه.

كان صوتها عميقاً يشي بأنها تنتظر كلاماً مهماً وجاداً، في الخارج كان يسود الصمت المسائي في حي النصر، وحين اندفعت ريح مفاجئة اصدرت النخلة حفيفاً مكتوماً وهي تراقب سعفها الذي بدأ يراوح في تمايله يميناً وشمالاً.

- نعم... قررت ان ابدأ البحث في اجراءات الدراسات العليا، أبدأ بالماجستير.

- ولديك كما أظن موضوع آخر.

- أم غازي تقرأ الافكار.

- لا.. ولكني كأم لدي حاسة سادسة قادرة على

الاستكشاف.

شعر بإحساس عذب يتمشى في عروقه وهو يستذكر شيماء، ولكنه شعر بالتردد في الحديث مع أمه عنها، لا شك انها ستفرح ولكنها لم تشبع بعد من رؤية ابنها، انتقاله الى حياة جديدة سيوزع مشاعره باتجاهين، لاذ بالصمت وهو يشعر بالحيرة.

- ليس وقته الآن.

على الباب كان طرق متكرر، قال شاكر من يكون هذا الملحاح.

ابوبرنيطة يرتدي سترة سوداء وقميصاً أبيضاً بخطوط حمراء وبنطال جينز، الى يمينه كان الشيخ صالح يقف خافضاً رأسه يتطلع الى المسبحة الخضراء وكأنه يراقب تساقط حباتها التي تدفعها اصابعه الخشنة، كان معهما خليف الزاير وشخص لا يعرفه، تطلع نحو شاكر بنظرة فاحصة وكأنه يزن ما سمعه عن أهمية شاكر في عمل لجنة حي النصر لمتابعة الحملة الانتخابية للتحالف (الديني - العلماني) الجديد وعلى أساس ان العمل يمثل صيغة ذات اهمية مزدوجة، امامهم مهمة غريبة ربما يجب السير فيها عبر نفق التاريخ السياسي، فكر شاكر انه سيواجه ضغوطاً ناعمة للعودة لمركز الزاير الثقافي، ولكنه سيكون قوياً في رفضه، فقد اختار طريقاً آخر وهو يتفق مع عادل الاستراتيجي بأن التحالف الجديد رغم

انه تحالف انتخابي، سيظل محتفظاً بصفة الهشاشة التي ستلازمه.

- تفضلوا...

قالها بصوت عال لتسمعه أمه لتهيئ غرفة الضيوف.

تراجع ابوالبرنيطة والشخص الآخر ليفسحا المجال للشيخ صالح الذي دخل وهو يردد يا الله، فيما كفت أصابعه عن دحرجة حبات المسبحة، أمسكها بكفه، الشخص الثالث دارت عيناه يتفحص الساحة وسقف البيت والنخلة الوارفة.

جلس الشيخ صالح في صدر الغرفة.

- أرجو ألا نكون قد أثرنا على جلستكم العائلية..؟

-لا... أهلاً وسهلاً بكم في أي وقت.

- لنصلي على محمد وآل بيت محمد، فهو خير ما نفتتح به الحديث.

ابتسم شاكر في سره وهو يتذكر عادل الاستراتيجي، وضع الشيخ صالح يده على لحيته، طرقت أم غازي الباب، تناول منها شاكر صينية الشاي، كانت الصحون الصغيرة قد اشترتها من بائع متجول عليها صورة فتاة بشعر منفوش مستدير على وجه مكتنز، تناول الشيخ الملعقة الفضية وبدأ يفصل الرأس من بداية الرقبة، قال الشخص الرابع - مثل هذه الاواني حرام استعمالها.

لم يعلق أحد، سكب ابوبرنيطة الشاي بصحنه وبدأ يشرب، قال: الشاي حلو.

نظر اليه الشيخ.. قاتلك الله انت تمزح بكل الاوقات.

- كيف..؟

- لا علينا، سأختصر الحديث، لقد وجدنا انه من الضروري ان نحضر لمحاولة الحصول على موافقتك بالعمل في الحملة الاعلامية، انت تعلم ان مجريات الامور لا يقررها البشر، إنهم اسباب ونحن واحد من هذه الاسباب، والمعنى الذي تكسبه الاحداث يظل في ظاهره من صنعنا.

فكر شاكر هذا ما تؤمن به أم غازي ايضاً وهو ما يرغب الشيخ بأن يكون مفهوماً عاماً، لأن هذا يسهل لهم توجيه الجمهور، سيذهب معه الى نتيجة محاولة الاقناع، وإن كان يقدّر ان المرحلة الثانية التي تعقب رفضه ستكون تهديداً مبطناً.

تابع الشيخ صالح...

- نحن، ومن ادراكنا لوقف عملية الفساد والسرقة وسوء الأداء نعمل على تحقيق نتائج مغايرة والاستعانة بعناصر نظيفة.

نظر نحو شاكر بتركيز وهو يتفحصه بعناية، في حين أمّن الشخص الرابع على كلامه، ابوبرنيطة كان يشرب كأسه الثاني من الشاي وهو يتلمظ.

- وانت أحد الاشخاص الذين رشحناهم للتعاون معنا، ولديك المواصفات.

- أية مواصفات، أنا لم أعمل في اية حملة إعلامية أو إعلانية.

- ابتسم الشيخ صالح: لن نناقش امكانياتك.

اكتسب صوت الشيخ صالح نبرة متبرمة وكأنه يحذره من استمرار التملص من المهمة التي يدفعونه لها.

- ولكن...

رفع يده التي كانت ترقد في حجره، كانت ثلاثة اصابع تشير الى الاسفل واثنان يرتفعان، اشارة واضحة أن أصمت.

قال ابو البرنيطة - شاكر يعرف مصلحته.

قال الرجل الرابع والذي لم يعرفه به احد - نحن نعرف إنك تنوي العودة الى الدراسة، يمكننا مساعدتك.

شعر انه لم يكمل عبارته فما لم يقله، (ويمكننا عرقلة عودتك).

قال أبو البرنيطة - تعلم إن الجماعة لديهم نفوذ في الجامعة.

قال الشيخ صالح: نتركك الى الغد حيث نلتقي مساء في مقهى.

خليف الزاير، الوحيد الذي لم يشترك بالحديث،

ربما كان يفكر بالمقهى التى تركها لمساعده، وربما لأنه يجد في هذا الحديث مضيعة للوقت.

*****

حين عدت بعد توديع ضيوفي الى الشارع القريب كانت شيماء تدخل بمعية أمي التي أمسكت بيدها.

شيماء تميل باستمرار الى الملابس ذات الألوان الهادئة ومن مشتقات البني أو الأزرق، كان شعرها مربوطاً يتدلى على ظهرها، قوامها ممشوق ومنتصب، تمشى بخطى وئيدة، تمهلت... لأتطلع اليها.

حين دخلت كانت تجلس على كرسي منخفض مركون الى الحائط وتمد ساقيها مسترخية، في قدميها صندل بني لامع، تماماً كما هي أحذية مجمان.

اعتدلت في جلستها مسترجعة قدميها الى الكرسي، زرقة عينيها سماء أواخر آذار حيث تتلألأ النجوم مبشرة بالربيع.

قالت أمي: ماذا كان يريد منك الشيخ؟

- أن أعمل معهم في الدعاية الانتخابية.

- يعني في السياسة.

- يعني..

-أود أن لا تتورط.

- لا فأنا سألتحق بالمعهد البريطاني غداً لتحسين

لغتي الانكليزية.

قالت شيماء - أمس رأيتك تدخل غرفة الأساتذة.

- كنت اطرح الموضوع على دكتور فلاح.

- بالمناسبة طلاب قسم الاقتصاد في السنة الثالثة يحترمونه.

- نعم.. فهو استاذ متمكن من موضوعه ومتعاون مع الطلبة وله ماض سياسي مشرف.

شاعت في جو الغرفة بهجة ناعمة، فيما انطلقت ضجة مختلطة من مجموعة من العصافير تتصارع فوق سعف النخلة وتتقافز من مكان الى آخر، تذكرت أغنية شعبية... الشجر الناشف بقى ورور... والطير بقى لعبي ومتهور.

ابتسمت بشيء من الحبور، لاحظت ان أمي ترمقني داخلة في مكمن أسراري، ربما لتتأكد من صدق ما تعكسه ملامحي من انجذاب نحو شيماء.

قالت شيماء: أنت تفتح باب الامل... ليس سهلاً العودة الى الدراسة، البداية من جديد أمر غاية في الصعوبة.

قالت أمي: يهوى التعب، لو أن الامر بيدي لفتحت له مكتبة.

- مع ساقي الصناعية، ما زلت رجلاً، لم تفقدني

ساقي الهاربة عزيمتي ولكنها حددت تحركي، ويبقى عقلى دون معوقات، ولهذا فالدراسة هي المجال الاكثر مناسبة لي، المكتبة هي عمل أحترمه ولكن عملي فيها سيكون وراء الحاسبة والعامل هو الذي يتولى التعامل مع الزبائن، اتطلع في وجوههم وأستلم أثمان ما يشترونه، الدراسة تعني استمرار الحياة حتى لو انجزت الدكتوراه.

ربما كان صوتي منفعلا..!

قالت شيماء: ولكن الدراسة ستفتح له باب مستقبل أكبر من مكتبة في بغداد.

قالت امي: ومتى يتزوج؟

تضرج وجه شيماء بحمرة خفيفة، تعتقد انها المعنية بالموضوع، خامرني فرح غامر.

قالت شيماء: لديّ سؤال في الإحصاء لم استطع فهمه أولاً والتوصل الى حله ثانياً.

أخذت الدفتر من يدها.

- أتذكر هذا السؤال، فقد كان من أسئلة الامتحان النهائي.

- ولكن هل تتذكر الحل، أعني طريقة الحل.

- نعم، وان يحتاج الى إعادة دراسته.

- حسنا... هل أعود غداً؟

- نعم... عصراً.

لـم تعلـق أمـي وإن لمحـت في عينيهـا نظـرة ماكـرة، أنـا أعـرف مـا يـدور فـلا تتشـاطر معـي.

حـين نهضـت شـيماء بـدء عطـر خفيـف ينتشـر في الغرفة وشـعرت ان الزمـن سـيظل معلقـاً حتـى عصـر الغد.

عنـد البـاب كانـت تـودع أمـي التـي بـدت ودودة معهـا، تيـار هوائـي اندفـع فحـرك خصلـة الشـعر التـي تركتها سـائبة علـى جبينهـا لتغطـي وجههـا، حرّكـت يدهـا لتبعـد الخصلـة المنفلتـة وابتسـمت وهـي تغـادر دارنـا.

جميـل ان يسـترخي الانسـان في فراشـه، يلفـه السـكون وظـلام الليـل الزاحـف، مطمئنـاً بـأن مصابيـح الكهربـاء لـن تعمـل، فيمـا تمـلأ مخيلتـه أطيـاف عذبـة، مـع النعـاس يقتـرب منـي وجـه شـيماء، حتـى انـي أشـم عطرهـا واتلمـس نعومـة بشـرتها وأسـقط في عمـق نفـق النـوم الآسـر.

الفصل الثامن

المثابرة و النجاح توأمان..

الأولى مسألة نوعية والثاني مسألة وقت

(ماربل مورغان)

وجدت إن من اللياقة ان أودع زملائي في مقهى خليف الزاير، وان أطلب من ابي برنيطة ان يعتذر نيابة عني من الشيخ صالح.

سألته من يكون الشخص الذي كان يصحب الشيخ، قال انه من فريق الحماية، ربما لم تلحظ انه كان يحمل مسدساً، مثل إبن سامية الحفافة بحماية الفريق أبوحسان، حين قلت له أنا لا أعرف ابن الحفافة ولا الفريق أبو حسان، قال الحفافة ماتت وابنها هرب الى كردستان ويعمل في مطعم للشيخ خالد، الفريق أبو حسان كان أ حد ابطال قادسية صدام، نحن كنا صغارا حين بدأت الحرب العراقية الايرانية، قال لي صديق انه شاهده في الشارقة.

قلت: هذا التاريخ لا يعنيني، وأنا جئت لتحمل عني رسالة اعتذار،غداً سألتحق بدراسة اللغة الانكليزية.

بدت عليه الدهشة، قال ربما يزعل الشيخ وهو عادة بطيء في الفهم ولكنه سريع الغضب، قد يعرقل قبولك بالجامعة، قلت ليس الامر بهذه البساطة، قال انك لم تتعلم الدرس بعد، قلت له في الجبهة تعلمت الكثير من الدروس، هل ستوصل رسالتي أم أكلف شخصاً آخر، قال سأوصلها وذنبك على جنبك.

ودعت الجميع، كان خليف الزاير ينظر إليّ بعطف وكأنه يتوقع ان أواجه أياماً عصيبة، أما عادل الاستراتيجي

فقد قال بنبرة جافة وبصوت هامس، سترى انك الرابح في النهاية، قلت ولكنا لسنا في مباراة.. قال: سنرى... الى اللقاء يا صديقي... ربما سنفتح صفاً لتدريس اللغة الانكليزية!.

شعرت وانا أغادرمقهى خليف الزاير إني وضعت نفسي في مواجهة حقيقية، داخلني ارتباك فيما يتعلق بخططي ودعوت الله ان يساعدني، لم تكن الصورة وردية وأنا أعيد حساباتي، ولكني رغم ذلك قررت المضي بمخططي، الماجستير وشيماء، علي ان أحصل عليهما لأبني مستقبلي.

كانت أمي تلملم حاجياتها بعد إن أغلقت التنور، قالت كيف سارت أمورك، قلت لا بأس.

أبي يجلس الى التلفاز يتابع مسلسلاً سورياً ويبدو منفعلاً مع بطولة (ابو عنتر)، وتومض عيناه حين تظهر ممثلة برداء شفاف واكتاف عارية، كان كأس الشاي مملوءاً، لم يباشر بشربه وقد برد تماماً، قالت أمي عجوز ومشلول وروحه خضرة!

لم يكن منتبهاً لما تقوله.

سيارة بيضاء وقفت عند الباب، خرجت أمي مسرعة.

- هل شاكر في البيت؟

- نعم...

صوتها فقد صلابته، نبرة خوف غامض أصدرته

حنجرتها.

خرجت مسرعاً فيما وقفت شيماء، أبي يتابع المسلسل السوري.

- تفضل معنا..

- هل أعرف من أنتم والى اين سأذهب..؟

كان الذي يتحدث معي شاباً قصير القامة أسمر البشرة مع تقاطيع خشنة، لم يكن يضع شيئاً على رأسه بتسريحته التي شاعت بين الشباب، الشعر في منتصف الرأس أما الجانبان فقط تمت حلاقتهما،

داخل السيارة، في المقعد الخلفي فتى ربما في السادسة عشر بيده بندقية كلاشنكوف مركونة الى جانبه.

- لن نتأخر، الشيخ صالح يرسل لك تحياته ويرغب ان يتحدث معك.

أمي واقفة عند الباب، قالت سآتي معه، قال الشاب... هذا كلام رجال، عيب أن تحضري يا خالة.

حين وقفت شيماء في مدخل غرفة الضيافة، توجه بنظره اليها، خمّنت انه سينقل معلومة قد تهم الشيخ صالح، فقد بدا في نظرته فضول، وشعرت انه يعاني من عسر الهضم فقد تقلص وجهه ولكنه يغالب الالم، ربما تناول في دعوة الأمس مع الشيخ صالح لحماً كثيراً، وربما كان الرز يحتوي على لية الخروف الذي كان ممدداً بعرض مغر فوق صينية الرز الذي تفوح منه رائحة السمن

البلدي.

صعدت الى السيارة لأجلس جنب السائق الذي قفز على عجل، قبل ان يتحرك فتح مسجلاً كان امامه مثبتاً في الواجهة، بدأ صوت حزين مملوء بالشجن يتحدث عن مقتل مسلم بن عقيل في الكوفة، تذكرت اني زرت المدينة وصليت في مسجدها الكبير، قال السائق الجميع قتلوا، قلت القتل في العراق منذ سرجون، قال باستغراب.. من؟ قلت سرجون الذي حكم العراق أيام الاكديين، قال لا أعرفه، قلت والاكديين، التفت نحوي في عينيه شك باني أستغفله، لا اعرفهم... أعرف حمورابي الذي كان يردد اسمه معلم التاريخ في الصف الخامس الابتدائي، قلت وهل اكملت الابتدائية، قال لا تركت المدرسة لاشتغل في مخبز الحاج سالم، قلت لا اعرفه... قال الحاج سالم ابونوريه ...قلت ولا اعرف نورية أيضاً... بدا كمن أسقط في يده، تتملكه حيرة، كيف يعّرفني بمخبز الحاج سالم.!

قلت: الى أين نذهب؟

قال: الى البلديات حيث مقر الشيخ صالح.

الدار التي وقفنا عندها كانت على تقاطع شارعين تتكون من طابقين، في الواجهة حديقة يتقدمها سياج متوسط الارتفاع وعلى امتداده شجيرات ليمون ورارنج وفي النهاية ثلاث نخلات ما زلن في طور النمو بارتفاع متر ونصف، وواضح انها تتلقى عناية ووفرة في المياه، كانت

خضرتها داكنة والسعف الذي بدأ يتجاوز السياج يلمع مزهواً، البلكون الممتد على طول الواجهة الأمامية لا يبدو ان أحداً يستخدمه، فقد كان السياج الحديدي بشبكته الزرقاء مكسواً بطبقة من الغبار، كما لم أشاهد كرسياً أو منضدة هناك، الباب الحديدي للسياج كان مفتوحاً والباب الخشبي الداخلي كان منقوشاً بمسامير ذات رؤوس عريضة ربما يبلغ عرض قطرها أربعة سنتمرات، تقول أمي اني مولع بالتفاصيل، هذا صحيح وقد علمتني اياه حينما كانت تصر ان أسرد عليه ما جرى لي حين أعود من المدرسة.

- أدخل...

قال الشاب وهو يعود من الداخل، نزل الصبي ببندقيته التي وضعها على صدره باستهانة، فكرت لو ان العريف أبومحبس راه لأجبره على الزحف طوال النهار في ساحة العرضات الترابية.

الغرفة صغيرة مفروشة بسجادة غطت أرضيتها ولا يوجد فيها كرسي، على امتداد الجدران كانت وسائد بالوان متنوعة.

أجلس، قال الشاب... سيحضر الشيخ بعد قليل فلديه ضيوف في الغرفة الثانية، جدران الغرفة العارية مدهونة باللون الابيض، في السقف وفي وسطه بالتحديد كان سلك كهربائي يتدلى بنهايته مصباح كهربائي، في

الزاويه الشمالية مروحة موضوعة على منضدة خشبية تم تغطيتها بشرشف بني، قبل ان أدخل الغرفة اخذوا الهاتف النقال، مرّ الوقت بطيئاً وثقيلاً، بدأ احساسي بالخطورة يتزايد، جلست على السجادة مسنداً ظهري الى الحائط، كلفني ذلك جهداً ومشقة ابعدتني عن الافكار المرعبة التي بدأت تتملكني، لم أكن أعرف أني سأواجه مثل هذا الموقف، كان أمامي خياران... المكتبة التي اقترحتها أمي أو العودة الى الدراسة التي اخترتها أنا.

بدأ المساء، ظلال كثيفة تتمدد في الغرفة، ارتفع صوت آذان من التلفاز في الغرفة المجاورة، شخص ما رفع درجة الصوت، لم يطلب مني احد أن أتوضأ، لم أكن أصلي ولكن من باب المشاركة، بعد دقائق خرج الشيخ وهو عاري الرأس وبصحبته ثلاثة اشخاص ودعهم عند الباب الرئيس، دخل الغرفة ومد يده ليشعل مصباح الإضاءة الكهربائي.

- لماذا تجلس في الظلمة... أعذرني فقد كنت مشغولاً.

- لا باس أقدر ذلك.

دعاني ان أصحبه الى الغرفة الثانية.

كانت معدّة جيداً، كراس مريحة وسجادة حمراء تغطي أرضية الغرفة، عند الزاوية اليمنى في نهاية الغرفة منضدة صغيرة عليها فازة زرقاء رسم عليها شخص بملابس جبلية وقلنسوة سوداء، الشخص على الفازة

يتطلع بنظرات حادة وكأنه يعلن أنه القائد العام لمقاتلي كازخستان!.

جلس الشيخ، تقدم شاب في العشرينات بحزامه مسدس بغلاف جلدي اسود، يحمل كأسين كبيرين من الشاي.

قال الشيخ: حينما اخترناك للعمل في الحملة الانتخابية، كان ذلك بناء على تقصّي عن شخصيتك وهو الى ذلك تكريم لك.

صوت هادئ ولكنه صلب، وخيل لي انه بلا رنين أو صدى حتى لو صرخ به بين الجبال في كردستان.

- ولكني لم أرفض لأني لا أرغب بالتعاون معكم، الدراسة لن تترك وقتاً اضافياً.

- الحملة الانتخابية شهراً واحداً، وقد يمتد عملك الى الاشتراك في عملية المراقبة وهي بضعة أيام... تعود الى الجامعة.

- لم يخطر هذا في بالي.

- هل اعتبر هذا الجواب موافقة.

لم يعد الامر مطروحاً كخيار، أصبح واجب التنفيد.

وأنا أعود الى البيت بسيارة الشيخ، كنت مجهداً.

كانت أمي تجلس على كومة الحطب والى جانها كانت شيماء وأختها الصغرى، نظرات أمي تتفحصني

بعناية لتتأكد أني لم أصب بسوء.

قالت شيماء ماذا حصل؟

- لا شيء، لقد وافقت ان أقود الحملة الدعائية لهم بدرجة (خروف).

- متى؟ قالت أمي التي لم تنتبه الى السخرية في جوابي، في حين ابتسمت شيماء وقطبت أختها جبينها.

- بعد ان أنهي دورة في الموضوع لمدة اسبوعين.

قالت أختها إن عليها ان تغادر فقد تاخر الوقت وأمهما وحدها في البيت، قالت شيماء وانا ايضا فقد طمأننا رجوعك سالماً، قالت امي لماذا لا تحضر ام شيماء ونتعشى سوية، شكرت أمي في سري، انا بحاجة ان أتحدث مع شيماء حتى عن مسائل الاحصاء، فمجرد سماع صوتها او وجودها يشيع في نفسي شعوراً جميلاً بالغبطة.

فهمت شيماء الدعوة فيما ابتسمت أختها الصغرى، حين ذهبتا قالت أمي أحسد مجمان على البنتين، كم سأكون سعيدة لو كانت شيماء من قسمتك.

رغم سروري بحديث أمي إلا اني افتعلت ما يشير الى عدم رغبتي به.

قلت لها: لا تتعجلي فأنا ما زلت في مفترق طرق كلها مفتوحة ولكني لا ادري أيها سيكون مستقري، بعض الأمور لا نقررها نحن رغم رغبتنا وانما الاحداث هي

التـي تصنعهـا بمـا تتمخـض عنـه مـن نتائـج.

لـم يبـدو علـى أمـي انهـا فهمـت مـا أريـد بيانـه ولكنهـا هـزت رأسـها موافقـة، قالـت اخـت شـيماء الصغـرى ان أمهـا تعتـذر عـن الحضـور فقـد جـاء أبوهـم مـن البصـرة، سـلمت امـي كيسـاً ورقيـاً، فسـتق إيرانـي أرسـله الوالـد.

أبـي يغفـو علـى كرسـيه، أمـي أمـام صنـوق الشـاي الاسـود، طيـف شـيماء يمـلأ الغرفـة، اشـم عطرهـا واسـمع تـردد انفاسـها، علـى يـدي مـا يـزال ملمـس يدهـا نديـا.

علـى سـريري كنـت أحـدق بسـقف الغرفـة، التـي أشـاع فيهـا الظـلام المختلـط بنـور مصبـاح صغيـر معلـق عنـد البـاب، لونـاً أشـهباً باهتـاً، بـدى اللـون الـذي كان يمـلأ غرفتـي كل ليلـة، شـاعرياً، يمكـن أن أتواصـل عبـره مـع شـيماء، تقـف عنـد البـاب تشـع عيناهـا غيمـة عذوبـة ، تكاثفـت الظـلال بخليـط مـن ألـوان هادئـة تنتشـر في مسـاحات لا متناهيـة، أخذتنـي الـى نعـاس مسـكر.

*****

أقيمـت الـدورة في واحـد مـن البيـوت التـي سـبق إن تم الاسـتيلاء عليهـا، المدخـل الـذي يقودنـا الـى بـاب البنايـة مرصـوف بمرمـر رصاصـي لامـع وعلـى الجانبـين حديقـة بعشـب ريّـان يتمتـع بخضـرة زاهيـة، علـى أركان كل جهـة شـتلات مـن الجـوري بألـوان متنوعـة طغـى عليهـا ثلاثـة ألـوان هـي الاحمـر والاصفـر والابيـض، لـم تكـن هنـاك ايـة

شجيرات، ثلاث نخلات فقط تقف متباعدة، يبدو انها زرعت في وقت واحد فهي متماثلة في الطول، قال احد المتدربين انها نخلات برحي، المدخل ترتقيه بست درجات بعرض اكثر من عشرة امتار، المرمر الرصاصي اللامع لم يكن من اختيار الساكنين الجدد، الباب الخشبي بلونه البني الغامق وارتفاعة الذي يبلغ ثلاثة امتار منقوش بصور سومرية واكدية، في المحيط مسامير فضية، قال أحد المحاضرين انه يعيذ بالله من بقاء تلك التشببيهات، القاعة واسعة حسنة التهوية فيها أربعة أجهزة تبريد، والكراسي المرصوفة سلسلة من ستة عشر كرسياً يفصل بين كل ثمانية منها ممر بمتر ونصف، في الصدارة منصة بارتفاع متر واحد ومنضدة خشبية وثلاثة كراسي، مكبرات الصوت مبثوثة بطريقة احترافية، شاشة كبيرة الى الخلف تستعمل وسيلة ايضاح عند الحاجة.

الحراسة المشددة كانت واضحة، في جوانب المدخل، فوق السطح، ينتشر مسلحون من أعمار مختلفة يحملون بنادق كلاشنكوف وفي احزمتهم مسدسات سوداء، وقبل الوصول الى البناية كانت تقف ثلاث سيارات دفع رباعي، واحدة خلف البناية واثنتان امامها يقطعان الطريق، مع السائق هاتف نقال موضوع امامه.

يبدأ الدوام الساعة التاسعة صباحاً وينتهي في الثانية عشرة والنصف، كل محاضرة ساعة ونصف مع فرصة

نصف ساعة، نتناول في الكافتريا الشاي والقهوة وقطع بسكويت متنوعة.

توزعت المحاضرات على اساليب الدعاية الانتخابية والعوامل النفسية وكيفية التأثير على الافراد، فضلاً عن دراسة موجزة لتاريخ العراق السياسي.

قال ابو برنيطة: سنصبح منظرين ولن أدع عادل الاستراتيجي يصدعنا بتحليلاته، بالطبع اذا ما استطعت الاحتفاظ بكل هذه المعلومات.

كان المحاضرون من اساتذة الجامعة، حين اقترحت على رئيس الدورة الاستعانة برجال اعلام مهنيون لديهم خبرة عملية، عاد في اليوم التالي ليقول الاعلاميون مخترقون، فهمت انهم لا يثقون بهم، شعرت اني بدأت أقبل الواقع الجديد ليصبح جزءاً من عالمي وليضاف الى الخيارات التي اعتزمت على تحقيقها، لم يعد الامر غريباً كما عرض عليّ في حينه، ماتت الافكار المعارضة امام الممارسة اليومية والتعامل مع ذات المجموعة من الواضح اني تعودت التعامل مع ظروفي الجديدة - ولكنه في اعتقادي يظل مؤقتاً حتى تنتهي الانتخابات وأعود الى دراسة اللغة الانكليزية، كانت شيماء قد اعطتني مجموعة من الروايات الانكليزية، معدّة بلغة بسيطة.

كنا نحضر انا وابو برنيطة يومياً بسيارتهم ويظل السائق صامتاً رغم محاولات ابو برنيطه جره الى

الحديث، ونبهني الى اننا يجب ألا نستعرض افكارنا في السيارة، فقد تكون بعيدة عن خط التيار وتفسر بما قد يلحق الضرر بنا.

قالت أمي: المكتبة انتهينا منها، ولكن زواجك...

لم ادعها تكمل قلت لها - بعد الانتخابات.

- لماذا؟

- الانتخابات ليست عملية ميكانيكية تتم بصورة مجردة، انها معركة حقيقية هذه المرة، مدافعها قد تلحق بي الطرش، هل تعتقدين إن فتاة اليوم تقبل بزوج أطرش!

نظرت نحوي متسائلة عما اذا كنت أسخر منها.

- سترين... نحن على الابواب.

قالت: وسترى انت... مساء ستحضر عائلة مجمان عندنا لأني دعوتهم للعشاء..!

غرد عصفور مشاكس في صدري وشعرت اني أعيش حالة من الفرح الذي تمدد في كياني، وحالة رضا جعلتني مرتاحاً على نحو لحظت أمي ذلك ولكنها تجاوزته لتعتني بأبي.

جوقة من العصافير الصاخبة بتعارض واضح في اللحن، قررت فجأة، ربما لفض الاختلاف بينها، أن تترك النخلة باتجاهات متباينة، فكرت انها كانت تبحث في كيفية الاحتفال بتوديع الخريف الذي عارضه بعضها لأنه

يرى ان الاحتفال يجب ان يكرس لمقدم الشتاء وبدء المطر وانتشار العشب الدي يستتبعه بالضرورة ظهور الديدان.

كان مساء رخياً، الشباك المفتوح على الجنوب في غرفة الضيافة يعبره نسيم طري، وقامت أمي بوضع مساند قطنية نظيفة مطرزة بخيوط ملونة تمثل تشكيلات متنوعة من الزهور البرية، قالت أمي انها اشترتها من كربلاء حيث كانت تعرضها امرأة قالت انها جلبتها من إيران، بدت الغرفة كأنها تنتظر عروساً، شعرت بارتياح، فيما قالت أمي ليس من السهل استقبال ضيوف، أنا وحدي ومشغولة بعملي، هذه المصاعب التي تواجهها عائلة بدون بنت.!

قلت ولكنك كنت مزهوة لأنك ام الولدين.

قالت ... غشيمة.

كانت شيماء بهية بطلتها، تمسك يد اختها الصغري، تتخلف عن والديها، كانت الام تحمل كيساً كبيراً، ومجمان كالعادة بعينيه الزرقاوين ونحافته التي تضفي علية طولاً بصرياً، كان حذاؤه الاسود لامعاً على نحو ملفت للنظر، فوجئت بأن شيماء قصت شعرها بتسريحة الى ما فوق الأذنين، مما سمح لقرط طويل ذهبي ان يتدلى الى منتصف الرقبة، تذكرت نزار قباني...

تعرفها

من خفها الجميل

من هسهسات الحلق الطويل

كأنه غرغرة الضوء بفسقيه..

تعرفها

من قصة الشعر الغلاميه..

من خصلةٍ في الليل مزروعةٍ

وخصلةٍ .. لله مرميه.

الفتيات عادة يخشين التجربة بتغيير تسريحتهن، أعطاني هذا شعوراً ان شيماء تملك شخصية متماسكة، ترتدي فستاناً من الكتان يزهو بلون مشرق، مما يطلق عليه الازرق الملوكي.

- حاجيات بسيطة، جاء بها ابو شيماء من البصرة.

فتحت أمي الكيس، كان فيه طيران من البط الذي يعبر الاهوار، قامت ام شيماء بتنظيفهما من الريش واربعة اكياس من المكسرات الايرانية وعدداً من علب الجبنة.

- ولكن ماذا تبقى لكم، قالت أمي..؟

- خير كثير، قالت ام شيماء.

قلت في سري خير الشلامجة لا ينتهي.

قال مجمان: واخيراً سأعيد بناء البيت مجدداً، هل تعرف مقاولاً يمكن الوثوق به؟

قلت: قرأت في الصحف اعلاناً عن شركة إنشائية تتكفل بكل شيء وبوقت قياسي ولكني

لـم اقـف علـى التفاصيـل، تعلـم انـا غيـر مهتـم بهـذا. قال: هل يمكن ان تعثر على عنوان الشركة؟

قالـت شـيماء: سـتكون معاونتك أبـي معروفـاً لـن ننسـاه، فهـو ليـس لديـه خبـرة.

قلت: هذا اقل ما يجب عمله.

نظـرت نحـوي، اندفـع شـلال مـن الضـوء الازرق ليغرقني ويمـلأ الغرفـة، الضـوء الازرق يرفعنـي كمـوج البحـر، اشـعر انـي علـى وشـك ان أفقـد توازنـي، أتشـبت بيـد الكرسـي وأسـمح لروحـي تنسـل الـى ظـلال المسـاء الكثيفـة، تبتعـد عـن مـوج الضـوء المتدفـق، أسـمع مجمـان يقـول لقـد سـاعدني إبـن العريـف حسـن برسـم مخطـط للبيـت الجديـد، سـيكون مـن طابقـين، الأول لصالـة واسـعة والمطبـخ والمرافـق الصحيـة والثانـي لأربـع غـرف نـوم وصالـة وحمـام ومرافـق ايضـاً، كذلـك مشـتمل صغيـر مـن غرفتـي نـوم ومرافـق وصالـة، سـأعرضه للإيجـار، ابـن العريـف حسـن يـدرس الهندسـة المعماريـة في البصـرة، هـل تصـدق لقـد طلـب العريـف حسـن ابنتـي شـيماء، قـال يمكـن أن يتزوجـا بعـد اكمـال دراسـتهما، شـيء مـا تغيـر فجـأة، اصبـح الشـلال الأزرق طوفانـاً من الموج المرعـب وشـعرت انـي اختنـق ويـكاد دمـي يتفجـر مـن أناملـي التـي تتـورم علـى نحـو أشـبه بوحـش كافكا، وفي غبـش الظلمة التـي مـلأت عينـي كنـت أرى مجمـان النحيـف والاشـقر ثـوراً غايـة في الخبـث يقـف امامـي وهـو يحفـر بقدمـه اليمنـى في

بـلاط الغرفـة خافضـا قرنيـه اسـتعداداً للهجـوم.

قالـت امـي: ولمـاذا الاسـتعجال، كمـا ان انشـغالها الآن قـد يؤثـر علـى دراسـتها.

قالت ام شيماء: كما انا مشغولون بالبناء.

قالـت شـيماء: قلـت لـك انـي لا افكـر بالـزواج الآن، امامـي مشـوار طويـل للدراسـة.

توقف الطوفان ومن انفراجة صغيرة بدأت أتنفس.

قال مجمان: الموضوع اقتراح.

عـاد الشـلال الازرق يتسـرب مـن فتحـات سـرية في مسـارب الطوفـان وبـدت في الافـق الحمامـة التـي بعثهـا النبـي نـوح بشـيراً بـأن المـاء قـد انحسـر في أماكـن قصيـة ولكنهـا في النهايـة أمامنـا.

طلبت من امي شاياً، نظرت نحوي في عينيها شحنة تشجيع، لقد فهمت كل التحولات وهي تشد من أزري.

قـال مجمـان: قبـل ان نغـادر أرجـو ألا تنسـى عنـوان الشـركة.

قالـت شـيماء: أذكـرك بمـلازم الدكتـور فـلاح في النظرية الاقتصادية.

قلت: لا... غداً ستكون عندك.

ابتسـمت، عـاد شـلال الضـوء الازرق يتدفـق، اهتـزت سـعفات النخلـة ونحـن نقـف عنـد البـاب نودعهـم.

قالت امي: الأحاديث على سفرة الشاي لقضاء الوقت.

كانت (حسجة) فهمت ما ترمي اليه.

- تصبحين على خير أم غازي.

قبلت رأس أبي قبل أن أذهب الى غرفتي، كانت الساعة الحادية عشر، في فراشي كنت اقف تحت الشلال الازرق، وحين انطلق صوت آذان الفجر لم اسمعه حتى النهاية.

الفصل التاسع

في صراع الماء مع الصخر..

بمرور الوقت يفوز الماء

(حكمة صينية)

توصل شاكر الى قناعة إن الاحداث هي التي تحدد أولوياتنا، رتب أموره ان الدارسة هي الأولوية التي يجب تنفيذها، لهذا التحق بالمعهد البريطاني لدراسة اللغة الانكليزية، كما اشترك في مكتب لتعلم الحاسوب، لديه كومبيوتر قديم ويستطيع ان يكتب عليه ويتصفح بعض المواقع الخبرية ولكن هذا غير كاف، وعليه ان يتعرف أكثر على بعض المهام والاستخدامات على أساس ان ذلك واحداً من شروط القبول، كما ساعدته شيماء باستعارة بعض كتب الاقتصاد من مكتبة الكلية ليستعيد معلوماته، واستطاعت عن طريق طالبة ماجستير تعرفت عليها ان تزوده بالاسئلة التي طرحت اثناء اختبار المنافسة على مقعد الدراسة، اليوم تقفز شيماء الى المقدمة في أولوياته بعد ان ظهر ابن عريف الشرطة في مدينة لم يعرف اسمها إلا من زوجة مجمان، مدينة في أقصى الجنوب العراقي بين الشط والنخيل، كيف سيعالج هذا التطور؟

فكر بهذا وهو ما يزال ممداً في سريره، في الصباح برودة خفيفة تبعث على التكاسل، تظل شيماء حتى في أولوية الدراسة تحتفظ بدور فاعل، فهي التي عرفته على مكتب تعليم الحاسوب وهي التي استعارت كتب الإقتصاد، وهي التي يناقش معها جوانب من الدراسات التي يستعيد قراءتها، أنهت أمه وجبة الصباح وانفض الزبائن وعادت ببعض اقراص الخبز، عملها ليس فيه عطلة اسبوعية أو

يوم راحة في أيام الاعياد، بالعكس تماماً، ففي أيام العطل والاعياد يزداد الطلب على الخبز، ربما لأن الناس تأكل اكثر..!

يطل وجه شيماء وتصبح المسافة التي تشملها الرؤية شفافة الزرقة، فكر بأنها الآن في تفاصيل كل اهتماماته بغض النظر عن ترتيبها، وهي الى ذلك في الترتيب الاول.

ما فكر به هو ان الأمل يلغي التردد، ربما قرأ هذه العبارة في مكان ما، ولكنها الآن أيضاً تدفعه لأن يقرر، سمع صوت أمه يناديه لأن يستيقظ، قالت تعرف إنه صاح في فراشه، الشمس تتسلق بسرعة نحو سماء زرقاء فبغداد بلا غبار والنسيم البارد بدأ يصبح دافئاً، أبوه على كرسيه، قالت أمه انها حلقت لحيته رغم اعتراضه، وعلى رأسه كوفية بالأبيض والاسود جديدة، في الشارع كان بائع الغاز يذيع اعلانه من مسجل مربوط الى جهاز تسجيل يكرر ذات العبارات، امه استبدلت استكانات الشاي الصغيرة بكؤوس كبيرة، قال إنه لا يجد مذاقاً فيها، استبدلته باستكان تدور عليه ثلاث حلقات ذهبية، قالت أمه هل ستذهب الى المعهد أم الى الشيخ صالح، تطلع فيها، الى المعهد فقد انتهت الدورة ونحن بانتظار البدء بانطلاق الحملات الانتخابية رسمياً.

على الباب كان فاضل ابوبرنيطة، لم تكن علامة ايجابية، فكر انه ربما لديه رسالة من الشيخ صالح، قال

ابـو برنيطـة انـه يرجـوه ان يسـاعده في الالتحـاق بالمعهـد البريطاني لأنه قرر أن يدرس اللغة الانكليزية، حين سأله لماذا.

ضحك أبو برنيطة - كل الشركات التي تقدمت للعمل فيها سألوني عن لغتي الانكليزية، لم يسألني أحد عن العربية ولا قواعد سيبويه التي ما أزال متخلفاً في فهمها.

ضحك شاكر - لا تنسى... سيبويه فارسي.

نادت امه ان يتفضل ليشرب الشاي.

قال: شكراً يا خالة.

قالت في سرها... خلخال يضربك على اليافوخ.

هي لا ترتاح له.

قال شاكر: الدراسة وحدها لاتكفي، عليك ان تستمع الى اللغة الانكليزية وان تتعلم اللفظ، سيساعدك العثور على برنامج على الحاسوب.

قال ابو البرنيطة: لا تصعّب الموضوع!

في الشارع بدأت جرافات البلدية باعادة ما تبقى من ركام الأتربة الى الخندق الذي سبق ان حفرته،.

قال ابو برنيطة: لا تتوفر الاموال لدى امانة بغداد فقد هرب بها المقاول، المشلكة ان أحداً لم يحاسب من أمر بدفعها له قبل ان يبدأ العمل، الأمر فيه رائحة فساد.

ضحك شاكر - انه الفساد بقضه وقضيضه.

- ماذا يعني؟

- يعني أنك غير مشمول بفهم المعنى.

قال موظف الاستقبال: يمكن أن تحضر غداً الساعة الرابعة بعد الظهر لتحديد المستوى.

قال ابو برنيطة - أي مستوى أنا احفظ جملة واحدة.

*****

ضحك الموظف - انت تعرف ثلاث كلمات وهذه كافية، ولكن تحديد المستوى مطلوب ايضاً.

كان يجلس منتظراً، الى جانبه منضدة صغيرة عليها مجلات باللغة العربية وبعضها بالانكليزية، التقط مجلة منوعات، في الصفحة التي فتحها كانت قصيدة محمود درويش (ريتا) ينحني ويصلي لإله في العيون العسلية!

وضع المجلة في حجره وهو يشعر بانزعاج.

كذب.....!

الآلهة لا تسكن في بيوت عسلية، تسكن في المساحات الزرقاء، الآلهة تسكن السماء، والجنة ايضاً يغمرها الضوء الازرق، تسكن في العيون الفيروزية.

قال ابوالبرنيطة وهم يسيرون بمحاذاة دجلة - هل ستتزوج شيماء؟

أخذ على حين غرة.

- لماذا تسأل؟

- لأن الجميع يلحظ اهتمامك بها.

- لا ادري...

لم يكن سؤال ابو البرنيطة خال من الغرض، صمت متطلعاً الى الماء الذي انحسر من الجوانب.

- اذا كان في نيتك الزواج فاسرع لأن الشيخ صالح سألني عنها.

- ولكن الشيخ صالح لم يمض على زواجه من رقية بنت سائق باص روضة الاطفال شهرين.

- نعم... كانت رقية في الصف السادس الثانوي ولم يسمح لها بدخول الامتحان النهائي، كانت عيونها بلون الكحل وحين تبتسم تشرق شمس اخرى.

- بديع... هذا وصف عاشق.

- نعم واغتال الشيخ عشقي ولهذا أحذرك.

- يبدو ان الشيخ صالح اختصاص بحي النصر.

- لقد اشترى سيارة تاكسي جديدة لفرحان... وسؤاله عن شيماء مقصود.

شعر شاكر ان وخزاً في جنبه الايسر يؤلمه، كانت مسألة ابن العريف مهمة سهلة، اما الشيخ صالح فالمهمة ستكون مستحيلة اذا تقدم لشيماء، لن يكون امامه فرصة للنجاح ، ما هو لون الحياة بدون عيون شيماء، عليه ان

يتحرك وبسرعة.

استقلا سيارة الى حي النصر، حين وصلا ودع ابو البرنيطة عند مقهى خليف الزاير، ذهب مباشرة الى بيت مجمان، كانت الأم عند الباب في دردشة جادة مع بعض النسوة، تردد في السؤال عن شيماء، توقفن عن الهمس وهن يتطلعن نحوه.

قال: خالة أم شيماء، أريد ان ابلغ شيماء اني سأجلب لها الكتب غداً.

قالت وسط ابتسامات النسوة المتواطئة: سأبلغها ذلك، نحن نتعبك.

- شكراً.

خمن ان شيماء ستفهم إن عليها الاتصال به، هي لم تكلفه بطلب أي كتاب، وهو ينسحب، شعر بإحراج شديد، ضبط خطواته بصعوبة، سمع امرأة تقول: يحفظه الله لشبابه، أعتقد ان عين حاسدة أصابت عائلة ام غازي، شاكر لا يستاهل ما حصل معه.

شعر برجفة تشمل جسمه بالكامل، صعد القرار من دهاليز روحه الى عقله الذي كان مضاء بنور غامر، ينتظر في النهاية ان يمنحه القوة لتنفيذه.

قالت أمه التي كانت تجلس الى صندوق الشاي وتحدث أباه لتقتل الصمت المعلق فوقهم كخيمة مليئة بالثقوب - هل تريد شاياً..؟

قال: لا.

انتبهت لجوابه بلهجة جازمة.

- ماذا حصل؟

لم يشأ أن يقول لأمه إنه يحب شيماء، عليه أولاً أن يتحدث الى شيماء ويقف على رأيها.

غالبه شعوراً بالوحدة وبالكآبة يقبض على قلبه، في طريقه الى غرفته، فكر هل ستفهم شيماء رسالته الغامضة، الفتيات لا ينقصهن الذكاء في الامور المواربة.

تمدد على سريره، جاءته أمه باستكان الشاي الصغير يرقص في الصحن الصيني الملون.

- لماذا لا تفتح الضوء، غرفتك مظلمة.

جلس يمسح شعر رأسه، وضع رأسه بين كفيه، في عينيه غمامة لا تمطر ولكنها تكاثف الظلال، تبدو الأشياء حوله غارقة في دكنة الظلال.

تدفق ضوء في جوانب الغرفة، رفع الاستكان الى فمه ببطئ، شعر بان صمتاً غريباً يسكن معه، سمع طرقاً على الباب، دق قلبه بعنف فقد جاءت.

كانت شيماء يغطي وجهها مسحة قلق، وعلى قصتها الغلامية وضعت شالاً من الستان الابيض، قالت ان أباها جلبه من الشلامجة، دعاها للدخول، قدمت أمه الشاي، ابوغازي ينظر اليها بشفافية فرحاً، قالت امه

انها ستذهب الى أم شيماء، فكر ان أمه تركت له شيماء.

- فهمت انك تدعوني للقائك.

- كنت اعتقد ان أمي وحدها تحل الالغاز.

- ليس هناك من لغز... ومن العذر الذي تذرعت به عرفت انك تطلب ان تراني، ولكني أجهل لسبب.

- حسناً عليّ ان ادخل في الموضوع مباشرة... انا أرغب في الزواج منك.

- ماذا..!

قالتها باستغراب وتابعت...

- هل تعتقد ان هذا الطلب يقدم على هذا النحو؟

لم تكن محرجة، تناولت الموضوع بتفهمٍ لم يخطر على باله، شعر من جانبه بالحرج، كان مندفعاً، صحيح ان بعض المواقف بحاجة الى حسم، ولكن حتى هذا بحاجة الى طريق مدروس.

- هل هذا بسبب اننا نستعد لاستقبال جماعة من البصرة لخطبتي؟

- لخطبتك..! ابن العريف في الشلامجة.

ابتسمت، تسللت نسمة هواء باردة حملت شذى عطرها كأنه من عمق ذكريات بالغة العذوبة.

- نعم.

- وما هو موقفك؟

نظرت نحوه مباشرة وقد التمعت عيناها ببريق أخاذ وبدا فيهما تصميم.

- قبل ذلك ما هو موقفك... لماذا خطرت لك فكرة الزواج؟

تردد قليلاً ولكنه شعر بأن الموقف يفرض ان يعود الى تمالك مشاعره وان يتحدث بعقلانية، الفتاة التي أمامه في سنتها الثالثة في الجامعة، والانترنت قلص مساحات الاسرار واقتحم أدق الخصوصيات.

- حسناً سأقول لك..

اعتدل في جلسته واتخذ مظهراً حرص ان ينقل لها احترامه وتقديره وحبّه.

- منذ فترة وانا أغالب نفسي في ان أعلمك بأني أحبك وكان هذا يسبب لي عذاباً، وبصراحة انا لا أستطيع منع نفسي من التفكير بك أينما كنت، في مقهى خليف الزاير أو في دورة الشيخ صالح، ولكن الاكثر الحاحاً عليّ حين أخلو الى نفسي وانا اتمدد على سريري في عتمة مطلقة، أو حينما أضيء الممر بالمصباح الخافت، فيتحول الظلام الساكن معي الى لون اشهب وكأنه غبش الفجر، يختلط الوقت وتتداخل الفصول والازمنة، أرفع الغطاء الخفيف على رأسي وأدفن وجهي في الوسادة.

نظرت بارتياح...

- نعم أقبل بالزواج منك.

طارت عصافير نزقة كانت تقف حائرة في صدره، تابعها تفر باتجاهات شتى.

- هل أنت معي؟

- بكل ما أملك من مشاعر... نعم معك.

تابعت: ابن العريف سأعالج موضوعه، هم قادمون يوم الخميس.

استدركت...

- تعلم بأنه ما يزال أمامي سنة لأنهي دراستي، أعني إن كل شيء سيكون بعد التخرج، صحيح إن فرص العمل شبه معدومة ولكن حلمي ان أنهي دراستي الجامعية وقد اخترت الاقتصاد بقناعة.

- نعم... وانا سأباشر دراسة الماجستير.

دخلت امه، شعرت بارتياح وهي تراهما منسجمين، هما متفقان، فكرت انهما عصفوران على شجرة واحدة.

- متى ارقص في عرسكما..؟

- أمي..!

تضرج وجه شيماء بحمرة خفيفة.

قالت: علي ان أغادر.

- ولكني أعددت شاياً بالهيل، اعرف انك تحبينه!

- اذاً، استكاناً واحداً.

كان أبوه صامتاً كما هو عادة، لحظ شاكر ان دمعة

واحدة من عين أبيه اليمنى تدحرجت ببطء على تعاريج خده.

- خرجت شيماء.

قالت أمه بعد وداعها: شيماء مكمّلة حتى وهي ابنة مجمان!

- وماذا في مجمان؟

- لا شيء غير اسمه، كان احد سائقي الباصات الخشبية في قلعة صالح اسمه هتلر، وكان السواق ينادونه هتلي وهم يضحكون، الغريب إنه كان يضحك معهم.

- أحد الطلاب في المتوسطة كان اسمه تيتو، تيتو كان رئيس جمهوري يوغسلافيا، الأسماء ليس لها وطن.

لم تعلق أمه، نزعت شيلتها فبدى شعرها وقد احتل الشعر الابيض اكثر من نصفه، ابتسم ابوه وأشار يطلب شاياً.

*****

شعرت بارتياح بعد خروج شيماء، اخرجت كتاب اللغة الانكليزية، الدراسة وحدها قادرة على ابعادي عن البقاء أسير مشاعري، كما ان عليّ ان أحافظ على جذوة الأمل التي ملأتني بالغبطة والرضا، قالت أمي إن شيماء جوهرة، فكرت ان هذا يعني ان احافظ عليها، تابعت أمي وهي تنظر في عيني - هل حدثتها..؟

- نعم.

- نعم...!

- لا مانع لديها.

- فقط... وماذا عن طلب ابن العريف الذي سيصل مع أبويه يوم الخميس.

- قالت أنها ستهتم بذلك.

لم ترد، رفعت أكواب الشاي وغسلتها، وضعتها في الصندوق الاسود بعد ان نشفتها، قالت إنها ستنام فهي متعبة، طلب أبي ان أدنو منه، وضع رأسي بين كفيه وقبلني.

بعد فترة من قراءة بعض قواعد اللغة الانكليزية شعرت بالنعاس، اغلقت الكتاب، في الشارع انطلقت أول زخة من رشاش خفيف، بدأ رمي متقطع سرعان ما اصبح سيلاً من الانفجارات، من الواضح ان معركة مسلحة قد بدأت، لم يشغلني ذلك فمثل هذه المناوشات كثيراً ما تحصل في أطراف بغداد عادة، طلبت امي ان أدخل الغرفة وذهبت لتتأكد من ان الباب قد تم احكام اقفاله، كان القفل الكبير في مكانه والرتاج الحديدي مثبت في الجهتين، أصوات سيارات الشرطة تملأ الفضاء فيما صوت مدرعات صغيرة يقترب من شارعنا، اتصلت بفاضل ابوبرنيطه ولكنه لم يرد فهو يبدأ الشرب في الثامنة وفي التاسعة ينام، هذا ان لم يكن على موعد، اتصلت بعادل

الاستراتيجي...قال ما عليك نزاع عشائري... قلت حول ماذا؟

قال من يعرف! ربما حمار آل شكيص بال بالقرب من دار البوحطي...قلت تصبح على خير.

حين توقف الرمي المتبادل، ساد صمت عميق أشاع قلقاً، في هذه الاحداث العبثية لا يمكن التنبؤ بما قد يقع، الناس على استعداد لاستعمال السلاح بذرائع مختلفة، بعضها غاية في التفاهة، أصبح الانسان ارخص سلعة في العراق، شعرت باحباط، تمددت على سريري دون ان أفتح مصباح الضوء الخافت، غرقت الغرفة بظلام موحش فقد اختفى اللون الأشهب، في الصباح لم أنهض كعادتي، بقيت متكاسلاً، عاد الكون أزرق، في الشارع كانت السيارات تتدفق مسرعة والطلاب يحثون الخطى الى المدارس وأمي أمام التنور وحولها بعض الصبية، المدارس في حي النصر دوامها مناوبة، ثلاث وجبات لثلاث مدارس في بناية واحدة، العراق الجديد غير قادر على بناء مدارس جديدة!.

أمام بيت مجمان كانت سيارة لوري تفرغ حمولتها من الطابوق، تذكرت أنه طلب أن ابحث له عن شركة انشائية لاعادة بناء البيت، تحاشيت المرور من امام بيتهم، صعدت الى تكسي كان يمر بشارعنا، كنت كمن يحدث عوالم غير مرئية فقد كنت ابتسم أو أقطب جبيني، لاحظت السائق

قد عدل من وضع المرآة أمامه، ربما فكر إن بي مس، تشاغلت بالقراءة، قال السائق هذا هوالعنوان شركة الانشاءات الوطنية، بالمناسبة الشركة معروفة وانا انقل يومياً زبائن لهم، مديرها كان ضابطاً في الجيش بوحدة هندسة الميدان، تآمروا عليه وتسببوا في طرده، لم أرد.

انا لا اؤمن بالصدفة، أو هذا ماكنت اعتقده ولا أميل الى تصديق الامور الروحية، ربما اخذت هذا من أخي غازي حين كنت أخرج معه وانا صغير، كنت اسأله عن امور كثيرة واشعر بالدهشة لأنه يعرف كل شيء، كان يجيبني دونما تردد وفي صوته قناعة مطلقة تجبرني على تصديقه.

كان الرجل الجالس على كرسي جلدي دوار وأمامه خارطة بدا مشغول بها، رفع رأسه، كان الملازم المهندس رفعت، تعرف عليه في الجانب الايسر في الموصل، شاب ودود واجتماعي، اندفعت نحوه بفرح غامر، احتضنني بحماسة.

- لقد شعرت بأسف لاصابتك وحاولت زيارتك في المستشفى الميداني ولكن دخلنا في انذار تعذر معه ان أغادر الموقع.

- شكراً.. ولكن هل تركت الجيش؟

- نعم... بعد تطهير الجانب الايمن قررت ان أنهي علاقتي بالجيش، مرت ليال مرعبة، رائحة القتلى تنتشر

على مساحات كبيرة، وتتعالى أحياناً اصوات تطلب النجدة، قال احد الجنود انهم يتعرضون لاستجواب منكر ونكير، حساب القبر، بدأت أصدق ذلك، تعرضت لإجهاد أتلف أعصابي.. وأنت ما هي أخبارك؟

- فقدت ساقي والآن لدي ساق صناعية وأفكر بدراسة الماجستير.

- خبر مفرح... انت تملك إرادة قوية.

- الامر له علاقة باني لا أصلح لشيء غير الدراسة.

- ولكن اية ريح حملتك إلينا.

- كنت أبحث عن شركة انشائية لإعمار بيت جار عزيز.

- حسناً.. اعطني العنوان لمعاينة الموقع ومتطلبات جارك لمناقشة الموضوع.

بعد ان شربنا قهوة أعطيته العنوان، قال سيكون المهندس المختص في الموقع غداً الساعة الحادية عشر، سيلقى جارك معاملة خاصة.

قال مجمان: الان انا مطمئن، ولكن سيكون وجودك اثناء مناقشة التعديلات على البناء مفيد.

قلت: سأحضر.

قالت شيماء - غداً لن اذهب الى الجامعة، الموضوع مهم وأرغب في توصيل وجهة نظري بالغرفة التي

ستخصص لي.

في البيت قالت أمي - سيكون بيت مجمان أحدث دور حي النصر.

لم اعلق، كنت متعباً.

الفصل العاشر

أنا مصمم على بلوغ الهدف...

فإما أن انجح.. وإما.. أن أنجح

(كارنيجي)

اليوم الاربعاء، غداً سيحضر عريف الشلامجة، لخطبة شيماء، مشاعر شتى تتقاذفني وتتدفق الأفكار متناقضة وأجدني مشتتا، حاولت أن استجمع نفسي وأخفي انفعالي، في مثل حالتي يغدو العالم ليس أصغر من قرية كما يقول منظرو الانترنت، ولكن ليس أكبر من حدود غرفتي، وأحياناً ليس أكبر من فضاءاتي التي تتصارع فيها افكاري ومشاعري، أشعر اني العالم.!

وجدت انه من الأفضل ان أذهب الى مقهى خليف الزاير فربما سأعود ثانية الى العالم، في الداخل كانت مجموعة من الشباب يناقشون الوضع السياسي في منطقة الشرق الاوسط، في آخر المقهى آخرين يدخنون الشيشة، يتفننون في دفع الدخان الكثيف ليشكل صوراً سريالية يتابعونها، طلبت من خليف أن يضع لي كرسياً على الباب، مراقبة المارة قد تشغل تفكيري، طلبت (شاي نومي بصرة)، قال خليف اني لست على عادتي بالحضور، ترك ابوبرنيطة مكانه مع المهووسين بالسياسة يتزعمهم عادل الاستراتيجي، جلس الى جانبي، قلت له لماذا شربت كثيراً، قال كي أنسى، نحن في عصر يتعلم فيه ابليس من البشر، في الحقيقة من الساسة العراقيين.

إعرابي في الصحراء وجد ابليس منزوياً وراء تل رملي، سأله لماذا أنت هنا، هل نسيت رهانك، قال: لا... ولكني فشلت في مهمتي مع الساسة الجدد في العراق

ولا ضير من الاعتراف بالحقيقة، أجد أحدهم مفلساً وضائعاً فأبدأ بتعليمه كل طرق الانحراف والخديعة، بعد أن يستلم مركزاً سياسياً ويبدأ بتطبيق ما تعلمه ويسرق الملايين من الدولارات، يبني قصراً على ناصية الشارع وفوق الأرض التي اغتصبها، يكتب على الواجهة، هذا من فضل ربي، يكتبه بخط الرقعة العريض وباللون الازرق، هذا ما دفعني الى الخلوة بنفسي علنّي أجد طريقة أخرى في التعامل مع هولاء ناكري الجميل.

– ولكن لماذا جئت على غير العادة، هل رفضت أم غازي تقديم الافطار لك.

– لا... أجدني مخنوقاً... شعرت بأني بحاجة الى الخروج، بعض الأفكار تتلبس الانسان كحالة غير صحية، تسد عليه منافذ التواصل مع العالم.

– صحيح... لهذا شربت ليلة امس عرق هبهب، قنينة قديمة جائني بها كريم من بستان فرهود ابن خالتي.

– انتبه الى صحتك فهذا العرق لبنات آوى.

– أعرف ذلك، كنت أساعد أبي في وضع كميات منه بأوان خاصة في مناطق مختلفة من البستان.. المنظر غاية في الطرافة حين نراها سكرى.. وبعدها حين بدأت الشرب كنت أتساءل عما إذا كنت في سكري مثل بنات آوى، كيف يمكن للانسان أن يرى نفسه وهو سكران؟

– ليس لدي فكرة فأنا لا أشرب.

- آه... تذكرت اني بالامس بين كاسين كنت اقرأ في رواية، كان الكاتب يقول: التفاؤل خارج التاريخ، يعني ان المتفائلين خارج التاريخ!، اليست هذه شتيمة!.. الحمد لله انها لا تنطبق عليّ، فأنا متشائم من الدراسة ومتشائم من العمل ومتشاؤم من الحب، باختصار أنا في قلب التاريخ، ما رأيك؟

- رأيي إنك ما تزال سكراناً، اشرب قهوة سادة.

- لا... ستجعلني خارج التاريخ.

توقفت سيارة نقل مواد انشائية امام بيت مجمان، خرج بجلابية بيضاء ودفع الاجرة وطلب من العمال ان يركنوا الطابوق الى الحائط، تقدمت نحوه، قلت غداً سيحضر مهندس من الشركة الانشائية لمعاينة الموقع والاتفاق معك على الكلفة.

نظرت في عينيه، كان راضياً.

تابعت - هل ترغب بأن أكون معكم؟

اجابني دون تردد: نعم احتاجك لتقف معي فأنا لا أتقن المحاورة مع الدلالين.

- ولكنهم ليسوا دلالين... هم شركة محترمة وصديقي المسؤول عنها.

- على بركة الله.

توقفت سيارة بيضاء مظللة، أنزل زجاج المقعد

الخلفي، أطل منه وجه الشيخ صالح، عمامته البيضاء أولاً، ثم لحيته الطويلة الحمراء التي كان قد سرحها بعناية، بدت لحيته وكأنها ملصقة على حنكة لتوصل طرفي صدغيه ببعضهما، العمال وهم ينزلون الطابوق من الشاحنة وحركتهم السريعة اثارت موجة من الغبار تحملها الشيخ صالح مرغماً.

- السلام عليكم...

لم ينتظر الجواب تابع: كيف هي امورك حاج مجمان.

رد مجمان بنبرة محايدة وكأنه لا يرغب برؤية الشيخ صالح:

- الحمد لله شكرا شيخنا... اعذرني لأني سأجلب الماء للعمال.

نظر الشيخ صالح نحوي مستغرباً، خمنت ماذا كان يريد فقمت بمناورة خبيثة.

قلت: اعذره شيخنا فهو مشغول بالاستعداد لاستقبال (خطّابة) لإبنته.

- مَن مِن بناته؟

- الكبيرة.

بدت لمحة اسف على وجهه، ترجل من السيارة.

- من أين الخطّابة؟

- من البصرة.

- من البصرة! يعني لم يجدوا في ثماني محافظات بين البصرة وبغداد الا بنت مجمان!!

- قسمة شيخنا.

صعد ثانية دون أن يودعني، شعرت بموجة من السرور تتملكني، لقد ابعدت الشيخ، وبانتظار شيماء غداً أن تبعد إبن عريف الشلامجة كما وعدتني.

حين عدت الى المقهى كانت ضجة الصراخ السياسي قد هدأت، خليف الزاير ينقل الطلبات وعادل الاستراتيجي مغمض العينين، ربما يحلم بالظهور على تلفزيون الفضائية العراقية، سوف لن يوافق على ان يحاوره حمادي، سيقبل بابن ملا طلال، سيتذكر انه لا يعمل في العراقية، ليس مهماً، سيقوم بالاستمتاع باهتمام زبائن مقهى خليف الزاير، سيجعله هذا الظهور صاحب الكلمة في مناقشات الشرق الاوسط الجديد في ركن الزاير الثقافي، وسيطلب من خليف رفع أسم أبو برنيطه مشرفاً على الركن.

سألني خليف الزاير بفضول عما كان يريده الشيخ صالح، قلت لاشيء بارك لمجمان تجديد داره، تمتم خليف.. لا أهلاً ولا سهلاً...تركني مسرعاً، شربت استكان شاي نومي البصرة.

امي تجمع حاجياتها وعندها تقف أخت شيماء.

- صباحاً سنكون بحاجة الى عشرين رغيفاً، لدينا خطّابة من البصرة، والظهر أيضاً.

رفعت امي رأسها نحوها.

- خطّابة !

- نعم ام غازي، خطّابة لشيماء.

لم تعلق أمي، ربما فوجئت، أو ربما خانتها شجاعتها لتقول لا، ولكنها تدرك انها ليست في وضع يؤهلها لذلك، لم تلمح الى ام شيماء او مجمان رغم انهما كثيرا ما يتحدثان معها، شعرت بانها تتعرض لخسارة فادحة، أدركت إنها منفعلة وهي تغالب نفسها، قلت لأخت شيماء سأكون معكم باستقبالهم، أبوك طلب ذلك، نظرت أمي غير مصدقة ولكني كنت هادئاً، بالطبع ستكون خالتك أم غازي معي ايضاً، شكّت أني أسخر من الفتاة، سكتت وعادت الى البيت.

حينما أندس في فراشي فإن عليّ أن أنزع الساق الصناعية، في الليالي الأولى كان ذلك يسبب لى وجعاً، يثير فيّ شعوراً حاداً بالإحباط، يشعرني إني مختلف، بمرور الأيام تعودت نزع الساق الصناعية وركنها الى جانب السرير، في الصباح أعود الى تركيبها، كل ذلك يتم بآلية دون أن يحرك مشاعري، وقد ساعدتني نظرات أمي التي لم تكن تشعرني أني معاق، كانت تتعمد تكليفي أحياناً بمساعدتها، كما زملائي في مقهى خليف الزاير لم يشيروا الى ساقي الصناعية.

حينما أدركت أني أحب شيماء، داخلني شعور

بالتـردد، هـل تقبـل برجـل يركـن سـاقه الـى السـرير ليـلاً، ولكـن نظراتهـا المفعمـة بالتعاطـف أولاً وبالحـب بعـد ذلـك، قضـى علـى تـرددي.

الليـل يتقـدم ببـطء، ويبـدأ السـكون القلـق يخيـم علـى حـي النصـر، ومـن بعيـد تبـدو مقهـى خليـف الزايـر التجمـع الوحيـد، تغـرق في ضـوء مصابيح كهربائية، الوطنية انسـحبت مـن الحـي، ولكـن خليـف يملـك اشـتراكاً فاعـلاً في المحولـة المنصوبـة بالقـرب مـن مقهـاه، البيـوت المشـتركة تخضـع عـادة لعمليـات احتيـال مـن قبـل صاحـب المحولـة، وتبـدو البيـوت المضـاءة ليـلاً عنـد توقـف كهربـاء (الوطنيـة) أشـبه بكـوى تتمتـع بالضـوء وسـط إطـار مـن ظـلال الليـل الكثيفـة.

أتمـدد علـى سـريري وأحـاول ان أركـن الـى قناعاتـي، أشـعر ان كل شـيء معلـق علـى نتائـج مـا سـيحصل غـداً، أسـتعيد اللهجـة الواثقـة لشـيماء وهـي تقـول أنهـا سـتتدبر موضوع ابن عريف الشـلامجة، لماذا لم أسـألها كيف سـتفعل ذلـك، ربمـا سـأكون أكثـر راحـة وطمأنينـة، مـن الواضـح انـي أخـوض معركـة غايـة في التعقيـد، ولكـن أليسـت الحيـاة، أيـة حيـاة هـي في وجودهـا تحـد وصـراع مسـتمرين، علـيّ أن أجمـع قـواي أولاً وان أثبـت مراحـل ومحطـات الطريـق الـذي سـأسـلكه، أن اناضـل مـن أجـل الاهـداف في نهايـة الطريـق.

شـيماء اولاً، حينمـا لا أفكـر بهـا أشـعر بفـراغ حقيقـي، حتـى أجـد انـي ضائـع، التفكيـر بهـا يجعلني أكثـر قوة وشـعوراً

بأني موجود واني كائن حقيقي، أشعر بأني قادر على مواجهة التحدي والصعاب التي تواجهني في حياتي، وحتى أفكر ان الدرجة العلمية التي أسعى للحصول عليها، هي وسيلة وسلاح لتحقيق حلمي بالفوز بشيماء.

وغدا سيبدأ مشواري الحقيقي، كانت أمي عند الباب تسأل إن كنت صاح، لم أرد عليها، من فتحة صغيرة أسفل الباب، تسربت نفحات من هواء بارد، سحبت الغطاء الخفيف حولي.

في الصباح الباكر كانت مجموعة من العصافير تتقافز فوق النخلة محدثة ضوضاء صاخبة، كان بعضها يشاكس البعض الآخر في تبادل الأماكن وفي التقرب من العصفورة التي تقف مراقبة مجموعة الذكور برؤوسها الكبيرة وأطواقها السوداء: ربما فرحة بكل هذا الصخب الذي يسببه وجودها وحيدة بينهم، وكفتاة تلبّستها حالة الزهو بخلو الشارع من أي فتاة أخرى، تشعر بأنها سيدة المكان، حطت على النخلة مجموعة جديدة كان معظمها عصفورات بطور التدرب على الطيران يرافقهن عدد من العصافير المتباهين بحمايتهن، طارت العصفورة وتخلفت العصافير متوزعة على سعف النخلة، حين وقفت عند النخلة فزّالجميع، في الفضاء الواسع المفتوح كان سرب من الأوز البري بدت بنية اللون تطير بنسق مشكلة قوساً شبه مكتمل، لم تكن تطلق أصواتاً في طيرانها وكأنها في

واجب، ولكن السماء الصافية والسكون كانا يرددان حفيف أجنحتها كرتم موسيقي مكرر، أمامها كان الدليل أو القائد ترك بينه وبينها مسافة ربما عشرة أمتار، تخلف الدليل ليتقدم طائر آخر، تبادل القيادة سلس وبشفافية عالية، ويطبق التداول السلمي للقيادة، وهي تعبر سماء بغداد تقدم في طيرانها درساً مجانياً في السياسة، ربما ستتم الاستفادة منه.

شعرت بسعادة عميقة وغامرة، استقر في وجداني انه يوم سعدي، شيماء ستتمكن بطريقة سحرية، لا أدركها، من النجاح.

قالت أمي الآن فقط انتهيت من وجبة الصباح، احتاج خمس دقائق لأغير (خلكات التنور)، الشمس الساطعة بقوة تكشف عورات حي النصر، شوارع لم تتمكن من الاحتفاظ بطبقة الاسفلت الرقيقة التي كسيت بها في يوم ما، خنادق نصف مطمورة بأكياس النايلون بألوان حائلة.

ارتديت على عجل بنطال جينز لون غامق وقميص بكم طويل بقاعدة بيج تتخللها خيوط بنية، كانت خديجة عند الباب قالت لقد حضر المهندس لمعاينة البيت ووالدي يرجوك الحضور، سألتها عن عريف الشلامجة قالت اتصلوا بنا وهم في الطريق.

كانت عائلة مجمان قد استعدت على نحو استثنائي، قامت خديجة بغسل كاشي باحة الدار والممرات بالماء

والصابون، وعلى الارائك القديمة وضعت مساند بوجوه جديدة خاطتها أم شيماء استعداداً لمناسبة خطوبة شيماء.

كان المهندس الذي ارسلته الشركة الانشائية يضع على رأسه قبعة صغيرة ويضع على عينيه نظارات ملونة، يقف وسط الدار بجدية مبالغ بها، وضع أمامه لوحة مما يستخدمه الرسامون التشكيليون وبدأ يكتب رغبات مجمان في تفاصيل البيت الذي يريده، عدد الغرف ومساحاتها وموقع المرافق والمطبخ، وتفاصيل متنوعة عن لون الجدران وشكل السلم الى الطابق العلوي، قام بعدها بجولة في البيت والتقط بعض الصور، ثم بدأ يرسم مخططاً عاماً، قال انه سيعد خريطة البناء ودراسة الكلفة خلال أسبوع، قلت له ان المهندس المدير وعدني بيومين، قال لا بأس سأكلمه في الموضوع وسنتصل بكم، الكلفة الاجمالية وطريقة الدفع تناقش مع المدير لاحقا، شرب علبة كولا وغادرنا.

كنا في غرفة الجلوس حين توقفت سيارة عند الباب، قال مجمان لقد وصل العريف وعائلته، شعرت برغبة مضطربة ان أرى غريمي، وقفت شيماء يرين على ملامحها الاجهاد من التفكير بالطريقة التي ستنفذ بها ما ازمعت عليه لتخريب الخطوبة، تشعر بصعوبة موقفها الدقيق بعدم التسبب لأبيها بإحراج أمام العريف الذي يمارس عليه سلطة فعلية كما حدثهم، هو المسؤول عن المخفر

الحدودي في حالة غياب الضابط، وهو أيضاً الشريك الاقوى مع أبيها كما خمنت هي.

دخل العريف أولاً، بدى كأحد المقاتلين من أيام الجحافل البابلية التي اجتازت الحدود الى أورشليم، قد يكون هذا الوصف مبالغاً به، ولكنه أول ما تبادر الى ذهني وأنا أراه ينحني ليدخل من باب الغرفة، وجهه مكتنز، عيناه حادتان، شواربه كثة، أنفه كبير، كانت يداه طويلتين، خيل لي أنهما من معمل الاطراف الصناعية، على العكس كانت امرأته بوجهها الاسمر وملامحها الدقيقة الطيبة، كانت وعلى نحو لا يمكن تجاوزه تبدو تابعاً على درجة كبيرة من الالتزام، وفي المؤخرة كان حكمت الذي جمع بين صفات الاثنين ولكنه عرف في المدرسة الثانوية وفي كلية الهندسة في جامعة البصرة بأنه يمتلك نسبة ذكاء عالية، أهلته ان يتفوق في دراسته، وكان من الشائع انه لا يملك أية امكانية لمواصلة الحديث مع الفتيات في الجامعة اكثر من تداول بضع جمل ينسحب بعدها وهو يشعر بخجل، ربما لانه وحيد ابويه ولانه عايش تناقضاً حاداً في سلوكهما، كان ينظر الى الارض وهو يصافح شيماءالتي بدا عليها شيء من الارتياح.. ربما اهتدت أخيراً الى الوسيلة التي ستمكنها من النجاح في مهمتها.

جلس حكمت مقابلاً شيماء، رتبت ذلك خديجة، ان تتزوج شيماء سيكون ذلك البوابة لزواجها هي، ليس لأن

شيماء الأكبر ولكن أيضاً لأنها الأجمل، عيونها الزرق وبشرتها الوردية وكونها على مشارف التخرج من الجامعة، كلها تحسب لصالحها، زواجها سيترك خديجة مرشحة للزواج.. تطلعت شيماء نحوي فيما كان حكمت يتطلع في جوانب الغرفة كأنه تلميذ يداري ذنب ارتكبه بالصدفة، أم حكمت تتطلع الى زوجها وهي على استعداد لأن تؤمن على كلامه وان تفهم الجميع انه يعرف كل شيء، أليس هو عريف مخفر الشلامجة.

- لنتناول شيئاً مع الشاي، قال مجمان.

قالت أم شيماء: خديجة... قومي معي لنجهز الشاي.

قالت أمي: وأنا ايضاً سأساعدكما.

فهمت ان أمي لم يرق لها ان تظل في جو متأزم، كانت تقرأ وجه شيماء، وتوصلت بحدسها كإمرأة، التواطؤ الذي يجري بين نظراتي وابتسامات شيماء المطمئنة.

قال العريف: قبل كل شيء يجب ان نتحدث عن الغرض من زيارتنا لكم .

قال مجمان: تأكلون من زادنا أولاً.

قال العريف: بيت عامر بأهله، ولكن ما هو رأي عروستنا.

التفتت شيماء الى العريف.. أنا؟

- وهل هناك عروس غيرك.

تنبهت كل حواسي بانتظار اللحظة الحاسمة، ارتفع وجيب قلبي وأنصب نظري على شيماء، شعرت ان لحظة التنفيذ للتواطؤ الصامت بيني وبينها قد حلت، وكمتآمرين عليهما تنفيذ ما اتفقا عليه، تجعل اللحظات غاية في الصعوبة، ربما هذا ما يدفع بالنخب المثقفة الى الغاء نظرية المؤامرة، أشهد أني تآمرت مع شيماء ولا مبرر للانكار.

اعتدلت شيماء في جلستها، كانت تسيطر على كل خلجاتها وهي ترى الأعين تتطلع نحوها مدركة ان ما ستقوله سيكون حاسماً في مجرى الحدث، وقفت أمي عند الباب معها أم شيماء وخديجة وفي يد كل منهن صينية من الستينلس ستيل اللامع.

قالت شيماء: ان مما يشرفني حضوركم واختياركم إياي، هذا يلقي علي مسؤولية أمامكم وأمام اللّه، وتكوين أسرة مسألة غاية في الأهمية، ولكن آخر ما أفكر به اليوم هو الزواج، لدي سنة لانهي الجامعة وبعدها سألتحق بالدراسات العليا التي تستغرق اربع سنوات أخرى، كما اني قد استطيع الحصول على بعثة دراسية، طموحي ان أحصل على الدكتوراه من جامعات بريطانية، لا أعتقد انكم على استعداد لانتظاري.

شملت الجميع بنظرة فاحصة لتتبين ردة الفعل، كان الجميع ينصتون مأخوذين.

تابعت.. واقترح من جانبي إذا سمح أبي أن تكون خديجة عروستكم.

سقطت الصينية من يد أمها، أما مجمان فقد تجمدت نظراته فيما صرخت خديجة بحرقة.. لا!

تقلص وجه العريف وأصبح لونه أشبه بليمونة تم عصرها الى النصف، أمي وقفت مندهشة وحينما وجدتني بلا انفعال مفاجئ إتكأت الى الحائط، كنت أخشى ان تستمر شيماء في الحديث وتضطر الى المبالغة.

قال العريف: هل يعني هذا انك ترفضين؟

- ليس الموضوع على هذا النحو، انتم تريدون ان تخطبوا إبنة مجمان، خديجة أيضاً ابنته.

قال العريف: أنت تضعينا بموقف محرج.

قالت شيماء: اسأل العريس!

قال العريف: الامر مفاجئ لنا.

تطلع نحو حكمت الذي بدا محرجاً...

- ماذا تقول؟

قال حكمت بعد لحظة تردد حائر.. لا بأس.

قال العريف: هل تتركونا لنناقش الموضوع.

همست أم حكمت - الصغيرة أجمل - وهي صحية وستنجب لنا دزينة اطفال.

الفصل الحادي عشر

الخبرة ليست ما يحدث لك...

بل ما تفعله بما يحدث لك..

(ألدوس هكسلي)

يبدو ان وزير الكهرباء قد وجد أخيراً الوسيلة التي مكنته من الوفاء بوعده، كان الوعد في مجلس النواب بعد هجوم نائبة كانت تتحامل عليه واصفة وعوده بأنها دائماً من غير وفاء، وللبرهنة على صحة استنتاجها رددت (حجيك مطر صيف).

صرخ نائب في الصفوف الخلفية (ما بلل اليمشون).

ها هو هذه الليلة حي النصر كأنه في مهرجان احتفال الضوء والصوت، البيوت والمحال وأعمدة الكهرباء التي علاها الصدأ، كلها تنشر الضوء باحتفالية دفعت بالظلام الذي كان قد اعتاد ان يشمل حي النصر بوحشة تسكن الشوارع والأزقة، دفعت به الى التراجع كاشفا مساحات واسعة تسمح للاطفال أن يجعلوا من الشارع الرئيس ملعباً لكرة القدم، من البيوت والمحال التجارية والمقاهي تنطلق ضجة صاخبة بأغان مختلفة بعضها عراقية وأخرى مصرية أو سورية، الجميع يعلن ابتهاجه باستمرار الكهرباء الوطنية منذ منتصف النهار، الإشاعة تقول ان الكهرباء ستستمر طوال الليل، غداً... لكل مقام مقال!.

كنت في مقهى خليف الزاير حينما جاء مجمان، بدأ الجو بارداً الى حد ما، ولكنها برودة يجب ان نتوقى منها، أبي كان ينصحني دائماً بأن أحذر من برودة الخريف فهي مضرة بالصحة، جلس مجمان الى جانبي.

- أرجو ألا اشغلك عن اصدقائك؟

- لا... لا شيء لدي.

- ذهبت صباح اليوم الى شركة المقاولات، قدم لي المدير خريطة البناء وكشفا بتفاصيل الكلفة، كان الرسم المعماري للبناء جميلاً كما كانت الكلفة مقبولة، اتفقنا على المباشرة بالعمل الذي سينتهي خلال ستة أشهر، بالمناسبة المدير كلفني بأن أنقل لك سلامه.

- وعليكم السلام...

- ربما استغربت موقف شيماء، منذ صغرها وهي عنودة وتتشبث برأيها، واليوم لها صفات مميزة فهي لا تحب البهرجة في لبسها أو سلوكها عادة ما تكون جدية، ليست دائماً، فأنا ألحظ في الكثير من الاحيان بسمة تجعل ملامحها رقيقة، تنتشر في وجهها ولكنها تحاول ان تتفادى إعلانها، أنا لا أخطئ ذلك، لم أفهم سبب حديثه عن شيماء، ربما لأنه حدس إن شيئاً ما يدور بيننا، أو ربما لانها بقيت الوحيدة في البيت، قلت له سيربككم البناء، قال بأن الفرحة بما سيتحقق اكبر من أية إرباكات.

جاء ابو برنيطة، غمزني بتخابث، في خيالي كانت شيماء شمس تملآ فضاءاته بنور هادئ يبعث على الإسترخاء، الزرقة المفعمة بالبهجة تسكرني، استأذن مجمان فيما كان ابوالبرنيطة يجلس، قال بان لديه خبراً مهماً من الشيخ صالح ولولاه لما أفسد الجلسة

العائلية، في التلفاز كان نقاشاً مبتذلا حول توقعات نتائج الانتخابات، قال ابوبرنيطة توقعاتنا ان تحالفنا سيكون في المقدمة، لم أعلق، قال عادل الاستراتيجي وكل حزب بما لديهم فرحون، دنا مني ابوبرنيطة ليوشوشني طلب الشيخ صالح ان نقوم باعداد الترتيبات اللازمة لعقد اجتماع جماهيري في مقهى خليف الزاير، قال المهم ان الميزانية مفتوحة، علينا ان نجمع أكبر عدد من الحضور، تمرّ بالإنسان أحياناً صحوة لقول الحقيقة... ولكن الكثير من الأمور لا يمكن البوح بها تظل في سريرة الانسان لا يمكنه التخلص منها رغم انها كعش للزنابير التي تجول في البساتين عند الخريف، ربما تكون سامة ولكن دون ان تتسبب في الموت، كنت أود ان أقول لأبي برنيطة إذهب انت وشيخك الى جهنم، هل يمكن أن اصدق مدّعياً عينه على فتيات الحي، النسوان أجمل ما في الحياة حينما يقرن في بيوتهن، قال الشيخ صالح هذا وهو يتابع شيماء تعبر الشارع، لم أعترض لأن ذلك سيدخلني في نقاش بالغ التفاهة معه، النسوان حالة متعة، لم افهم قال لا تتعب رأسك حينما يتاح لك الزواج ستصل الى ما أعنيه.

اليوم لا يمكن ان تعمل بما تراه أنت بل عليك ان تعمل بما يطلب منك، أو في أحسن الأحوال ان توائم بينك وبين الآخرين أو تجلس في بيتك، قلت لابي برنيطة غداً لديّ موعد في الجامعة لمعرفة موعد الامتحان للمتنافسين

على دراسة الماجستير، قال موعدنا مساء، سأنهي كل شيء وعليك كلمة الافتتاح ثم تقديم الشيخ، الجميع الآن منظّمين وقد تعلموا من متابعة التلفاز وهو يعرض لقاءات متنوعة.

كنت أفكر ان أذهب مع أمي مساء الى بيت مجمان، قال بأنه زارنا أكثر من خمس مرات ونحن لم نرد الزيارة إلا مرتين، قلت له مساء اليوم سنكون عندكم، قلت لابي برنيطة لا أشعر اني بوضع يسمح لي بالقاء كلمة، هل يمكن تأجيل اللقاء الى يوم الغد؟ حك رأسه ونظر نحوي بتخابث، قال هذا يحتاج الى ثلاثة اشياش كباب وكاسة مخلل عند هاشم، قلت غداً ظهراً، أصر بعناد، الآن لدينا وقت كاف وستنتظرك المحروسة! يقول عادل الاسترتيجي لو ان الحكومة استعانت بأبي برنيطة لاستطاعت ان تحل مشاكلها، فهو يتمتع بقدرة على تمييع المسائل الشائكة، كما أن لديه قدرة على ابتكار وسائل إقناع لا تخطر على البال، وهي بحاجة الى الاثنين معاً لتعبر المتبقي من عمرها.

جاء صبي الشيخ صالح ليقول لي ان الشيخ يرغب بلقائي، الآن... قلت باستغراب، قال إنه في السيارة خلف المقهى، قال ابوبرنيطة... إيدك بالدهن!.

كان جو السيارة يملؤه شذى عطر رخيص أشعرني بالانقباض، كان الشيخ يمسح لحيته ويتمتم بعبارات لم

أتبينها وخمنت انها دعاء لقضاء الحاجة، حين صعدت الى جانبه طلب من السائق ان يترك السيارة وان لا يبتعد، حمل السائق مسدساً حربياً كبيراً ولم ينظر نحونا.

- فضلت ان أراك بالسيارة تحوطاً.

- بأي مكان شيخنا سأكون حاضراً.

- شكراً...

فرك يديه وتنشقهما وأخرج مسبحة بلون الفستق الاخضر.

- لي عندك رجاء وكلي ثقة بأنك لن تخيبه.

- أنت تأمر شيخنا.

- استغفر الله... سأدخل بالموضوع... الله المستعان... علاقتك بعائلة مجمان وثيقة كما علمت، كما أني رأيته يجلس معك عند حضوره المقهى.

قفزت الى ما وراء حديثه ولكني شعرت بالدهشة، الشيخ تزوج منذ أشهر، ولكن يبدو انه يملك طاقة مخزونة يرغب في تجربتها قبل ان ينتقل الى مباهج الحور العين، حين وصفت هذه الطاقة بالشيطانية ونحن نناقش في الركن الثقافي أشكال الطاقة، قال طالب في كلية الشريعة استغفر الله يا أخي كيف تدخل طاقة شيطانية الى الجنه، ولكن على العموم هي طاقة تنبت في الصحراء وفي بيوت الشيوخ لأنهم يزرعون الرمل.

- صحيح.

- حسناً، لقد أرحتني، انا أرغب في القرب منهم... بالزواج من ابنته الكبرى شيماء.

كنت مستعداً للخبر وفكرت ان ما فعلته شيماء مع عريف الشلامجة يجب ان استفيد منه مع الشيخ، سبق ان قلت لشيماء انها استخدمت الصدمة الخفية، قالت الحديث المباشر الجازم يوقف المقابل، قلت للشيخ - يؤسفني شيخنا ان اقول انك تأخرت - شيماء بنت مجمان مخطوبة.

التفت نحوي بكليته وتوقفت يده عن تحريك حبات المسبحة واهتزت لحيته الحمراء فانطلقت منه رائحة حناء.

- من خطبها؟

كان تساؤله محبطاً.

- أنا

- أنت

- نعم.

- لا حول ولا قوة الا بالله، يمكنك ان تذهب.

راقبني وانا أترك السيارة بصعوبة بالغة بسبب ارتفاعها ومشاكل الساق الصناعية، شعرت أننا نسير بخطين متوازيين يظلان قريبين ولكن لن يلتقيا، هذا هو

ما كان يسميه عادل الاستراتيجي التماهي الموضوعي وهو يعلق على التحالف الانتخابي.

في المساء لم أدع الى التجمع الجماهيري في مقهى خليف الزاير، كنت في البيت اقرأ في رواية لكونديرا، كان عنوان الرواية يعبر على نحو دقيق عن توجهها (حفلة التفاهة)، قالت أمي شخص عند الباب يطلبك، قلت من هو، قالت لم أره قبلاً، نظيف وأنيق، طير غريب، ربما (عكعك)! ضحكت وأنا ارمي الرواية وقلت، عليّ ان أشكره أولاً لأنه أوقف قراءتي.

كان فعلاً غريباً وابتسمت وأنا اتصوره من فصيلة طيور العكعك بألونها الخضراء المتدرجة ومناقيرها الزرقاء وذيلها الطويل الأنيق وهي تتأرجح فوق أسلاك الكهرباء، فيما تلمع أجنحتها بلونها الاسود.

قال بأنه من حزب البيئة الجديدة وانه يرغب في الحديث معي، قلت ولكني على موعد هذا المساء ويؤسفني ان أعتذر، كانت شيماء ستحضر بأسئلة امتحان المنافسة للعام الماضي، يعني كل ما اتطلع اليه سيكون أمامي عينا شيماء، وتفاصيل الماجستير.

قال: لا بأس هل يمكن ان نلتقي في كافتريا الفقمة غداً الساعة الواحدة ظهراً؟

فلت: الفقمة بعيدة وأنا لا أملك سيارة.

قال: سأحضر بسيارتي ونذهب سوية.

كانت شيماء تقترب... انسحب عن الباب وحينما جاورته انحنى بأدب وهو يقول، تفضلي يا آنسة ، بدى الموقف كأنه عملية تصوير مشهد سينمائي، ابتسمت شيماء وهي تدلف الى البيت.

قال: في الساعة الخامسة سأكون عندك.

سلمني بطاقة تعريف.

قلت: حسناً.

قالت شيماء ماذا يريد؟

قلت: لا أعرف.

قالت أمي: كيف ستذهب مع عكعك غريب؟

قالت شيماء: هل تعرفيه يا خالة.

قالت أمي: لا.

قالت شيماء: ماهو العكعك إذن؟

قالت أمي: طير بين الغراب والهدهد، ولكنه اكثر زهواً بنفسه يقف تحت الشمس ليتمتع بالتماع ريشه.

كانت شيماء تجلس قبالة أبي تشمله بنظرة حانية وكان هو يعبّر في صمته وحزنه الرقيق عن تعاطف ابوي معها، قالت لا بد من ان يتعرض لأشعة الشمس في ساعات الصباح على الاقل، العتمة تولد الكآبة.

قالت شيماء: لقد جئتك بالأسئلة لمنافستين في عامي ٢٠١٤ و٢٠١٦، وفي الحقيقة وجدتها متشابهة الى حد بعيد

واعتقد ان دراسة الاجوبة سيمنحك القدرة على الجواب حتى إذا ما غيروا فيها جزئياً.

تناولت الاوراق منها، كانت كفي ترتعش وهي تلامس أصابعها البيضاء الرقيقة وفي عيني طافت غمامة صغيرة شوشت مجال الرؤية وملأته بزرقة كظلال أشجار الحور التي يكتظ بها بستان أبوستار على نهر ديالى في مدخل بعقوبة، جاء صوتها صافياً ينساب بعذوبة مسكرة.

- متى سيكون إمتحان المنافسة؟

- الاثنين القادم... الذين سيؤدون الاختبار عشرة طلاب وهم الذين اجتازوا اختبار اللغة الانكليزية.

- حظاً سعيداً.

- سأحتاج بعض المراجع من مكتبة كليتكم.

- أعطني اسماءها وسأستعيرها.

قالت أمي: لقد برد الشاي، سأغيره لكما.

توجهت بنظرها نحو شيماء وتابعت - متى سينتهي البناء.

- ما زلنا في البداية.

- أرجو ان نفرح بك بعد ذلك.

ابتسمت شيماء بخجل - مشواري طويل وأعدّ نفسي لمواصلة الدراسة.

قالت أمي: حينما يحل التفاهم تحلّ المشاكل.

تضرج وجه شيماء بحمرة خفيفه فقد فهمت ما تلمح اليه أمي، وفي عينيها شاع رضا مفعم بالتعاطف، شعرت وانا أتملى وجهها بأن ما أريده ممكن جداً، وان شيماء ستكون لي، بشيء من الغرور فكرت انها قدري، لم يكن أملاً الجأ اليه كان ذلك الشعور بمثابة ثقة مطلقة بأني استطيع تحقيق أولوياتي التي حددتها منذ زمن والتي، ولمدة محدودة، دفعها الشيخ صالح الى التراجع الى حد ما، داخلني إحساس غريزي بالدفاع عن تلك الاولويات ضد غريمي الشيخ صالح، لاح لي الشيخ شخصية بائسة.

خرجت أمي لتجمع الملابس من على حبل الغسيل، قلت لشيماء،هل الوالد في البيت، قالت لا سيعود من الشلامجة بعد أسبوعين... لماذا؟ بدى تساؤلها كأنه لتأكيد جواب تفكر به، فقد شاعت في عينيها ظلال ابتسامة متواطئة، قلت لها كنت أفكر ان أفاتحه! قالت، بماذا؟ تحولت الابتسامة الى تحريض للاستمرار بالحديث، دخلت أمي تحتضن الملابس لتلقيها على الأريكة الفارغة وقالت ان جو الخريف هذا العام لا يؤتمن، فهو متقلب ويلوح بأيام عاصفة، قالت شيماء كل ما في بغداد هذه الأيام متقلب وعاصف، قالت أمي أعتقد ان موجة غبار ستحتل بغداد، كان الله في عون المصابين بالربو، رفعت مؤشر الصوت في التلفاز، كان المذيع يتحدث عن ارتفاع في عدد المنتحرات في كردستان، وبدا هذا غريب بعض

الشيء ففي زمن الحرية يزداد عدد المنتحرين، لا أدري أين قرأت ذلك، ولكنه يتكرر هنا، قالت شيماء أي مخاض نمر به، قلت مازحاً الولادة.

كان أبي ينصت لنا وهو شارد، ربما يفكر في هذا الدفئ العائلي، أشار الى الشاي، استأذنت شيماء، شعرت ان المساء يغادر معها ولا يبقى غير الظلام وهدوء عميق.

حين أويت الى الفراش كنت أفكر بالمونا ليزا، لو كنت فناناً تشكيلياً لرسمت شيماء فهي أجمل منها وأكثر حيوية، بل هي ممتلئة بالحيوية، حين بدأت أسقط في لجة النعاس، فكرت إنها حظوظ!.

الفصل الثاني عشر

إرادة النجاح مهمة..

لكن الأهم منها إرادة التحضير للنجاح

(بوبي نابت)

الخريف يغادر صاخباً وغاضباً أيضاً، لم يكتف بموجات الغبار التي تخيم عادة يومين أو ثلاثة، بل استكمل مغادرته بغيوم رعدية ممطرة... قال خليف الزاير انها من علامات الساعة، قال عادل الاستراتيجي بل من آثار احتلال امريكا، لا تنسوا اليورانيوم المنضب، قال ابوبرنيطة في رأيي ان السبب في هذا هو جحافل الدبابات التي قطعت الصحراء من البصرة الى بغداد وهي تحاذر دخول المدن.

قال مجمان العائد من الشلامجة وهو يشرب شاي نومي البصرة - ما رأيك؟

قلت: العلم عند الله.

حاولت ان أغلق الموضوع.

كنت أفكر بالطريقة التي أفاتح بها مجمان لم أكن خائفاً وإنما حائراً ومتردداً، يحاصرني ضيق بأني أدخل مغامرة ستفتح أبواباً لمشاكل غير واضحة المعالم، عليّ ان أتمالك نفسي وان أبدو هادئاً، فالتوتر يسبب القلق، شعرت بأن الساق الصناعية تؤلمني.

قال مجمان: هل قبلت في الدراسة.

قالت شيماء: هل ذهبت للامتحان؟

- ربما غداً تظهر النتائج ولكني مطمئن فقد كانت إجاباتي جيدة.

- ان شاء الله.

- أم شيماء أخبرتني ان واحدة من جاراتها تحدثت معها عن رغبة الشيخ صالح بخطبة شيماء.

شعرت بأن ركبتي تصطكان فضغطت على أعصابي.

تابع - قالت بأنه سيشتري لها شقة في الرستمية وسيارة (سايبه) جديدة.

بدأ الضوء الابيض يتراقص أمام ناظري.

تابع - شيماء رفضت.

إحساس مفعم بالرضا داخلني ليعيدني إلى الواقع.

تابع - هل تعلم أنا لا أحب هذا الشيخ فهو لا يعرف غير النساء.

شعرت اني أفوز بالجولة الاولى.

قلت - لدي رجاء عمي مجمان.

نظر نحوي باستغراب، وضع استكان نومي البصرة في الصحن بصوت مسموع، صالب ساقية والتمعت عيناه بتساؤل لجوج وكأنه يطلب ان أذهب رأساً الى ما أريد قوله، كانت أصابع يديه مستقرة على المنضدة الصغيرة وكأنه على وشك أن ينهض، هدوء حذر يرين على وجهه، شعرت اني أعبر دجلة في ربيع ممطر حيث يتدفق النهر غرينيا شديد الخطورة، ولكن هذا ما عليّ ان أفعله، فالعريف يقف خلفي واذا ما ترددت سيدفعني وقد أفقد اتزاني.

- أنت تعرفني جيداً.

- نعم.

- صحيح اني أزمع مواصلة دراستي ولكني أتقاضى راتباً من الدفاع.

- نعم.

- ما أريد قوله اني أرغب في التقدم لشيماء.

انبسطت أسارير وجهه، شعرت بدفق من سعادة.

قال - مبدئياً لا مانع، ولكن...

عاودني الانقباض، فكرت انه يريد القول ولكنك بساق واحدة، داخلني حنق مغيض على ساقي الهاربة.

تابع - ولكن لا بد من الرجوع الى شيماء أولاً وأمها ثانياً.

تتابع اضطرابات مشاعري بين السلب والايجاب، فكأني في أرجوحة ترتفع الى الخلف على نحو خطر ثم تعود الى نقطة التوقف ترتفع بعدها الى الأمام، والآن أشعر اني أترك الأرجوحة لأقف على قدمي السليمة والصناعية، ولكني أقف!

- طبيعي... هذا طبيعي فالزواج توافق بين شخصين وعائلتين، بانتظار ردكم لنحضر رسمياً.

ضحك مجمان وطلب استكانة نومي بصرة ثانية - رسمياً! تذكرني بالمعاملات الحكومية...

توقفت سيارة، بيضاء مظللة، على نحو مفاجئ محدثة جلبة وضجيجاً دفع بروّاد مقهى خليف الزاير الى ألالتفات نحوها.

قال خليف - اللّه الساتر كنت أظن انها ستدخل المقهى.

اندفع بعض الجالسين الى الخارج يدفعهم الفضول، ترجل (العكعك)بلمعان ملفت للنظر، وضع قدميه على الأرض ومدّهما ببطئ قبل ان يحني رأسه ويكون خارج السيارة، تعمد ألا يغلق الباب وراءه ليتيح للجالسين رؤية شخصين مسلحين في المقعد الخلفي، والشخص الجالس جنب السائق بشارب أسود يتدلى الى الجانبين ويحجب فمه، يتطلع بعدوانية ظاهرة.

تقدم العكعك نحوي.

- مرحباً شاكر.

لم أنهض لاستقباله فكرت ان لا أجعل المشهد متكاملاً.

- أهلاً استاذ... تفضل بالحلوس.

- جئتك أمس على الموعد ولكنك لم تنتظرني.

- صحيح.. فقد كنت في الجامعة لاختبار الدراسات العليا.

- لقد نسيت ذلك، حصل خير... يمكن أن نعوض ما

فات الآن.

- غير ممكن فلدي ضيف.

- الموضوع لا يحتمل التأجيل وهو لن يستغرق أكثر من ساعة.

التفتّ الى مجمان مستنجداً، لكنه قال... لا بأس يمكنك الذهاب وعند العودة طمّني.

عبرنا جسر الأحرار... اجتزنا معرض بغداد الدولي، لم نتبادل أي حديث، كنت مشغولاً بظاهرة ان مجموعات متناقضة تحاول جري الى العمل معها، لم أكن قريباً من أي نشاط سياسي، وكل ما ساهمت به هو بعض المداخلات في نقاشات مقهى خليف الزاير، إبتسمت وانا أفكر بانهم يصدقون انفسهم بالحديث عن مشاركة الشباب وقضية الوجوه الجديدة التي يتدولها الشارع في حمى الدعاية الانتخابية التي بدأت قبل الموعد المقررلها، وجدت أن في هذا مفارقة تكشف أن لا شيء سيتغير، قرأت مرة ان الامر مثل منفاخ الحداد يمتلئ ثم يفرغ، الجميع يندفعون بقوة ولكنهم يتراجعون بذات الزخم الى الوراء، انعطفت السيارة يميناً لتدخل في زقاق نظيف، الاسفلت فيه كأنه قد تم غسله بالماء للتو، من وراء أسيجة المنازل ترتفع أغصان خضراء بنضارة زاهية لأشجار الحمضيات، بعض تلك المنازل أسيجتها من أشجار الياس الداكنة الخضرة والتي تم قصها باشكال مختلفة، كان أحد هذه البيوت

بوّابته على شكل قوس من الياس يرتفع ليسمح بالدخول.

في مدخل الزقاق نقطة حراسة مكشوفة، مسلحان يجلسان على كراس خشبية وراء طاولة حديدية عليها جهازي هاتف، شخص ثالث يضع في حزامه مسدساً حربياً يقف وسط المدخل، أنزل مرافقنا الجالس الى السائق زجاج النافذة وأشار بيده دون ان يتكلم، افسح المسلح الطريق والى اليسار توقفت السيارة.

كان البيت مسدل الستائر ويتكون من طابقين وفي الواجهة (بالكون) صفّت فيه أربعة كراس وطاولة، كانت ستارة الشباك المطلة على البالكون مسدلة الستائرأيضاً، ستائر بدا لي أنها من النوع الثقيل الذي لا يسمح لضوء الشمس ان ينتشر في الداخل، ستة درجات من مرمر رصاصي يتوجب صعودها لتصل الى الباب الخشبي المصبوغ بلون بني لامع، في المدخل على اليمين مرآة كبيرة والى اليسار لوحة لأهوار العراق، ثم باحة واسعة ومجموعة من الأبواب الموصدة، سكون غريب يسكن البيت وكأنه ينذر بخطر قادم، العكعك الى جانبي يقودني صامتاً، شعرت بخوف مبهم فقد داخلني شعور بأن كل ما أراه ليس واقعياً، وكأن الزمن الآن ليس الزمن في حي النصر وما سيجري لا يمكن التكهن به، فكل ما يخطر على البال متوقع الحدوث، كان ذات الشعور الذي داخلني ليلة نفّذت رهانا للدخول الى مقبرة في الكرخ.

طرق مرافقي باباً خشبياً مصبوغاً بذات لون الباب الرئيس، صوت عميق وهادئ قال: ادخل.

فتح مرافقي الباب وطلب ان أتبعه.

- استاذ هذا شاكر من حي النصر.

رفع الاستاذ يده مشيراً لنا بالجلوس، كان شكل الاستاذ وصوته العميق ونظراته المتفحصة والتي تتسم بحدة على استعداد للتصعيد بعدوانية في أية لحظة، تفسر الجو المحيط بالمسكن.

وضع ورقة كان يطالعها على المنضدة.

- أخ شاكر، هل تعرف السبب لطلب رؤيتك.

- بشكل محدد، لا.

- قبل ان نبدأ الحديث أود ان أعرف ما إذا كان خلدون قد تصرف معك بحماقة.

كنت على وشك ان أقول له ان العكعك غير مؤذ بطبيعته ولكني تداركت ذلك،

- كان السيد خلدون غاية في الظرف.

طلب الاستاذ شاياً دون ان يسألني، التفت الى خلدون وقال بعد الشاي يمكنك ان تذهب الى عملك.

كان النور الخافت الذي يتسلل الى الغرفة والسكون العميق والحديث المرسوم بعناية يبعثان فيّ نعاساً خشيت معه ان تأخذني غفوة، شعرت اني غريب تماماً، وفي هذا

المسكن كأني قد قطعت الصلة بعالم حي النصر، مقهى خليف وابوبرنيطة وعادل الاستراتيجي يتباعدون كذكريات قديمة ضاعت في تتابع الواقع.

المفارقة هي ان هذا الواقع بطيء في حركته ولكنه ضاج بدلالاته التي تتفاعل في فكري، كيف يمكن ان أتعاون مع الاستاذ وأنا أشعر اني أمام محقق أمني محترف يفرض علي ان أفكر بعمق قبل الاجابة، وكيف لمثل هذا المحقق ان يكسب في الانتخابات! مع الشيخ صالح يمكنني التنبؤ بالخطوة التالية الي سيتخذها، ولهذا كنت اشعر بالثقة وانا أقف أمامه في مقهى خليف الزاير أو في بيته حين دعاني، كنت أشعر ان المناورة مع الشيخ صالح مثل لعبة (الغميضة) التي يمارسها الأطفال فهم يتوقعون مكان الاختباء كما ان لديهم قرائن أين سيلجأ الآخر، ولكن مع الأستاذ الأمر مختلف، أشعر وانا ما أزال مسترخياً بخطر يحفز ذهني، ولكنه يترك جسدي للاسترخاء، كان هذا التناقض المتوازن هو الذي حدد استسلامي للموقف بانتظار ما سيقع.

قال الاستاذ - أخ شاكر منذ مدة ونحن نبحث في الأحياء الشعبية عن ركائز يمكن ان نبني عليها، ليس عملنا في الانتخابات، ولكن عملنا السياسي، الانتخابات ستتكرر، واذا لم نحقق فوزاً اليوم فسنحققه غداً إذا عملنا بجد في خلق ركائز شعبية، أعني بهذا اننا نعمل لقاعدة

شعبية واسعة، ومن هذه المناطق كان حي النصرالذي تسكنه مجموعة كبيرة نسبياً كما انه حي فقير ولكن العديد من ساكنيه يتمتعون بحيوية، وشبابه في معظمهم متوسطي الثقافة، كل هذا يجعله موقعاً نموذجياً لعملنا، ما أريد قوله اننا نعمل للمستقبل.

شعرت أني مقدم على الاشتراك في منظمة سرية تخطط للإستيلاء على السلطة، ربما جمعية ما سونية! ما دفعني الى ذلك طقوس الصمت والضوء الخافت والعزلة، أو ربما حزب البعث بلباس جديد،

- وبماذا يمكن ان أساعد.

كان تساؤلي ساذجاً، لم يكن اختياري إعتباطاً، فهم ربما راقبوا نشاط مركز الزاير الثقافي في المقهى وشخّصوا من يمكن ان يستفيدوا منه وبهذا فهم يعرفون جيداً أين يوظفون جهودي وجهود الاخرين.

- هذا أتركه لنا ويمكن ان تعيد سؤالك بصيغة أخرى.

- كيف... لم أفهم.

- ان تسألني وماذا أستفيد أنا؟

صمت وهو يحدق مباشرة في عيني.

- ستكون أحد أعضاء منظومتنا وسيحدد راتب ثابت لك وسنرعى دراستك العليا في الجامعة، وقد تذهب في بعثة الى امريكا.

شعرت اني ما زلت أفكر على نحو محدود وكأني من عالم منعزل قضاياه محصورة في حدوده، لماذا لا تكون المنظمة التي يتحدث عنها الأستاذ تابعة لدولة عظمى أو لأحد أذرعها الاستخبارية، العالم كله مشغول بمستقبل العراق ليس بسبب النفط والغاز والثروات ولكن لموقعه في المنطقة.

- كل ما تقوله أستاذ، جميل ومنطقي ولكني لا أعرف مع من أتعامل.

- ببساطة نحن حزب من ائتلاف مجموعة من رجال الاعمال العراقيين توصلنا الى قناعة بأنه يجب استثمار المرونة المتاحة أمام العمل السياسي والبدء بوضع خارطة عمل على مدى ثلاث دورات انتخابية.

اختلطت عليّ الامور على نحو شعرت اني أفقد القدرة على التركيز.

قام الاستاذ من كرسيه الجلدي الدوار وفتح الستارة ليطل على أشجار الحمضيات الممتدة على طول السياج، بدت شمس كانون الثاني خجلة وهي تشمل بغداد باطلالة لونت زرقة السماء الصافية بخيوط ذهبية كخيوط التطريز في عباءة الشيخ صالح، تحركت أغصان الشجيرات بحركة بطيئة أضفت على المنظر سحراً اقرب الى المعجزة ، في مثل هذا الشهر من كل عام تكون السماء ملبدة بالغيوم الداكنة والممطرة، فيما تتحرك أغصان الاشجار بحركة

مجنونة وتصدر أصواتاً غاضبة.

توجه نحوي، لحظت انه قصير القامة أبرز ما لفت انتباهي عينان واسعتان تتميزان بنظرة غير مستقرة ولكنها مخاتلة، تبعث شعوراً بأنها تراقبك وتتسبب في قلق غامض لأنك لا تدرك ما تهدف اليه.

- يمكنك ان تفكر بالموضوع وأنتظر إجابتك في غضون أسبوع.

كان هذا يعني إنتهاء اللقاء، نهضت لأواجهه، مد يده مصافحاً، إنفتح الباب ليدخل خلدون، فكرت انهم يشاهدونا عن طريق كامرة في غرفة الأستاذ.

في الطريق سألت خلدون عن الأستاذ، قال بأنه كان عسكرياً عمل في الاستخبارات وفي دوائر أمنية، ولكنه تقاعد بعد حرب الدخول الى الكويت وتفرغ للعمل التجاري والصناعي.

كان مجمان قد غادر المقهى حين وصلت، قال خليف الزاير خيراً ان شاء الله، قلت في مقهاك تنقطع سبل الخير! ضحك وقال هذا الجواب يستوجب شاي نومي بصرة على حسابي، قلت مازحاً ولكن يبقى الرجاء.

كانت أمي تقف عند التنور منهية وجبة المساء تلتقط الأرغفة التي تخصصها لنا عادة اذا نفد ما لديها، كنت مجهداً فلم أتوقف عندها، القيت عليها التحية ودخلت.

كان أبي أمام التلفاز يبتسم بحيوية وهو يشاهد

مسرحية عراقية، كان أحد الممثلين يضرب على الطبلة في حين كان الثاني يقوم بدور أعمى يرشده الطبال، قّبلت رأسه وذهبت الى غرفتي، دخلت أمي.

قالت: أين كنت طوال النهار.

- في المقهى وذهبت الى المنصور.

- هل من جديد؟

- لا...

نظرت نحوي بحب مفعم بالحنان، توجهت لتفتح الشباك، قالت الغرفة بحاجة الى تهوية، المساء يلامس فضاء حي النصر ناعماً، بدت النخلة التي أرتوت تماماً من أمطار الأسبوع الماضي يانعة الخضرة تتمتع بحماية السياج الذي بدأت تعلوه، فرّت العصافير حين فتحت أمي الشباك الذي أصدر صريراً حاداً،، قالت مفاصل الشباك بحاجة الى قليل من الزيت، جلست على السرير.

- بماذا تحدثت مع مجمان.؟

فاجأني السؤال المباشر، إذا فان شيماء أخبرتها، بالتأكيد هذه علامة ايجابية، أشعرني هذا بالارتياح، أولوياتي تتحقق على نحو أشبه بحلم هادئ تتحقق فيه معجزات متتالية، توجهت الى الشباك المفتوح تخيلت إن النخلة تبتسم لي وإن المساء لم يكن في يوم أجمل منه الآن.

- مع مجمان!

- نعم مع عمك مجمان.

أمي جميلة حين تتخابث معي لتكشف أسراري الصغيرة، أشعر بحنانها، لم أشأ أن أستمر بالمواربة.

قلت - طلبت منه موعداً لنذهب اليهم لخطبة شيماء.

- ولكن شيماء وهي أصدق منك قالت بأنك خطبتها.

- ربما ولكنه طلب ان يسأل الأم والبنت.

- حسناً... الخير فيما اختاره الله، سيكون العشاء جاهزاً بعد قليل.

غسلت وجهي لأطرد نعاساً خفيفاً بدأ يثقل عيني، كانت أمي قد أعدّت صينية كبيرة عليها الطعام ووضعت أمام أبي صحناً من الرز والمرق ورغيفاً ساخناً فهو لا يستغني عن الخبز.

كان نومي مريحاً تخللته أحلام قصيرة ولكنها كالرسوم السريالية، كل ضربة فرشاة بحاجة الى من يشرحها لك، ولكنها مسلية، شعرت بالبرد وتذكرت إن الشباك الذي فتحته أمي ما يزال مفتوحاً، أغلقت الشباك ووقفت أنظر الى الليل البارد الذي يمنع سكان حي النصر من الخروج من بيوتهم، يخيم صمت عميق على الحي، يتوقف الزمن وتصبح هذه الليلة نقطة عبور ثابتة الى الغد، الذكريات التي نستعيدها نسقط منها المصاعب فالأمور بنتائجها، وحتى يقرر مجمان دعوتنا وحتى إعلان نتائج المنافسة على دراسة الماجستير سيظل التاريخ معلقاً، ان حركته

منوطة بالمتغيرات! شعرت بالنعاس يعاودني.

إستيقظت على صوت الصبية الواقفين بانتظار الخبز، تناولت الشاي وارتديت ملابسي لأذهب الى الجامعة للوقوف على نتائج المنافسة، عند موقف الباص كانت شيماء صحبة زميلات لها ينتظرن أيضاً، حييت الجميع وصعدنا سوية الى الباص الذاهب الى المستنصرية، في الممر تخلفت شيماء، مطر ناعم خفيف تدفع به ريح باردة الى الوجوه، أسرعنا الخطو الى البهو، وقفت عند إعلان على الحائط، وقفت جنبها، مثل الأحلام الجميلة أو الذكريات التي تنشط ونحن بنصف اغماضة، كنت أعيش اللحظات وأنا أشم عطرها، كان يحمل شذى قداح البرتقال في الخريف.

قالت: لقد اخبرني أبي.

حاولت ان أجيبها ولكني شعرت بانه يتعذر علي الكلام، كنت أشعر اني فقدت صوتي تحت تأثير عطر البرتقال الطازج وحمرة وردية غطت وجنتيها المرتفعتين، ربما أدركت ما أعانية، يقولون ان النساء أقدر على اكتشاف التوتر عند الرجل حينما يكون في حالة حب.

قالت بصوت هامس - سيدعوكم ابي.

غادرت بهدوء، لم أنتبه الى جلبة الجرس وهو يرن داعياً الطلبة لدخول صفوفهم، الذكريات تدهمك أحياناً على نحو لا تتوقعه، كان أحد طلاب السنة الثالثة يقف

ضاحكاً وهو يتطلع الى الطلبة المتوجهين الى صفوفهم، كان يقف الى الجدار ويقهقه كأنه استمع الى نكتة بالغة الطرافة، حين سألته عما أضحكه، قال بانه يرى الطلبة يركبون سيارة عجلاتها مربعة، وهو يضحك على حركتهم مع مسيرة السيارة التي ترفعهم وتنزلهم وهم قلقون وخائفون ايضاً، تصور... تصور.

توجهت الى قسم الإدارة، قال رئيس القسم لقد تم استلام أسماء الفائزين في المنافسة، نظر في عيني مباشرة، شعرت بغصة في قلبي، لم يكن إسمك فيها، قال ذلك بلهجة تشفّي مشحونة بعدوانية غريبة فأنا لا أعرفه ولم يسبق لي الإحتكاك به، استدرت خارجاً، وشعرت بأن جبهتي مبللة بما نضح من عرق، جلست على مصطبة خشبية، استعدت نفسي ببطئ، ذهبت الى غرفة أساتذة قسم الاقتصاد، كان الدكتور فلاح وحده، طلب مني الجلوس، قال لا تتكلم أنت بحالة صعبة، طلب لي شاياً، إنتظرني حتى انتهيت، حكيت له الموضوع، كان الدكتور فلاح أحد اكثر الاساتذة قرباً من الطلبة، كان ايضاً متمكناً من المادة التي يدرسها والمعروف عنه انه يجيد أربع لغات غير العربية، ومن النوادر عنه انه يعرف المراجع الذين يركن الى مقولاتهم بكل تفاصيل حياتهم وأفراد عائلاتهم، لا يقتصر هذا على المعاصرين وإنما يمتد الى أكثر من قرن من الزمان، كنا أحيانا نستظرف فنسأله كم عدد

أولاد (شومبيتر) أو من هي زوجة (ماكس فايبر)، لم يكن يتضايق كان يضحك وهو يرد، قال انتظرني، ترك الغرفة ونسي ان يأخذ نظارته الطبية معه، قدرت انه كان منفعلاً، هو رجائي الوحيد في الوصول الى تحقيق أمنية حياتي، حاولت ان أتلهى بالنظر الى الحديقة الواسعة في الخارج، بعض الطلبه يتمهلون في الدخول رغم البرد لأنهم يغرقون بأحاديث حميمة، شقراء كانت تنكس رأسها فيتدلى شعرها حاجبا وجهها في حين تبدو ملامح زميلها غارقة بجدية يغطيها شد عصبي يشيع ظلالاً داكنة على وجهه، عاد الدكتور فلاح صارم النظرات، قال ان الامر لا يخلو من التلاعب، يمكنك ان تعود غداً وستكون لديّ كامل الحقيقة، للغش دائماً رائحة.

الفصل الثالث عشر

من خلال أشواك الخطر نحصل على زهور السلام..

(شكسبير)

لقد برر الدكتور فلاح ثقة شاكر المطلقة به، فقد استخدم مركزه كرئيس لقسم الاقتصاد في الكلية ونائب رئيس لجنة الدراسات العليا في الطلب من القسم المختص بالاشراف على اختبار المنافسة للحصول على حق الانتساب للسنة الجديدة وطالب بأن يطلع على دفاتر الممتحنين، وقد ساعده على الإصرار على طلبه ان إثنين من الأساتذة الممتحنين استغربا استبعاد شاكر، قال مدرس تاريخ النظرية الاقتصادية ان إجابات شاكر كانت متقدمة، أما أستاذ النظرية النقدية فقد اشاد بأجوبة شاكر، بل قال بأن الطالب قدم دراسة ممتازة حول توجهات السياسة النقدية للبنك المركزي العراقي، لحظ الدكتور فلاح ان بعض موظفي الادارة في الجامعة بدا عليهم التوتر وكانت إجاباتهم حول البحث عن دفاتر الممتحنين مترددة وتشوبها نبرة خوف غامضة، وهو يستلم رزمة الدفاتر استدعاه العميد الى غرفته، كان العميد محرجاً، في عينية نظرة قلقة فهو يعرف جيداً المدى الذي يمكن ان يذهب اليه الدكتور فلاح، قال بعد أن طلب منه الجلوس، أعرف أنك على حق والطالب شاكر مهدي كانت اجاباته متكاملة ولكن...

كان الدكتور فلاح ينصت باهتمام الى العميد وهو يتحدث بنبرة تبريرية مهمومة.

تابع - ولكنا تعرضنا لضغط كبير.

استغرب دكتور فلاح وقال: من هي الجهة التي مارست ذلك؟

قال العميد: اعرف انك لن تهدأ حتى تعرف كل شيء... حسناً من أحد القيادات الطلابية في الكلية، نقل لي إن جماعته تحذر الكلية من قبول شاكر مهدي على دراسة الماجستير.

- هل أعرف من هو الطالب؟

- هاشم عبيد

- لحسم الموضوع وتجنيبك الإحراج، هل يمكن ان تستدعي الطالب، كن على ثقة اني لن أسبب لكم أية متاعب، سيكون حديثاً هادئاً.

ابتسم بمودة وتابع.. وودوداً.

حين جاء الطالب، لم يكن في ذهنه أي تصور عن المقابلة.

قال العميد - هاشم... الدكتور فلاح يود ان يتحدث معك عن موضوع شاكر مهدي، ساترككما لأن لدي محاضرة في الصف الرابع.

طلب الدكتور فلاح من الطالب الجلوس.

بعد سلسلة من المناقشات والردود التي تقابلها إعتراضات قال الدكتور فلاح بنبرة واضحة وقوية:

- أرجو ان تعلم اني أعرف نائب رئيس التنظيم وهو

الى ذلك مسؤول الطلبة والمثقفين فهو صديق قديم كما تربطني به علاقة قرابة ويمكني أمامك أن اسأله عما اذا كان الموضوع أمر من القيادة لاعتبارات خاصة أم انه من أحد العناصر الثانوية التي تصفي حساباً خاصاً مع زميلك شاكر.

تغير وجه هاشم وعلته صفرة مفاجئه قال.. دكتور لا داع.

- يعني..

- يمكن ان نبحث عن حل وسط.

- حسناً أقترح ان يمرر قبول شاكر هذا العام ويتم إعلام صاحبكم بأنه سيقبل العام القادم دون الحاجة لامتحان المنافسة.

انفرجت أسارير هاشم.

- موافق انه حل رائع... ولكن هل تعدني بعدم إيصال الموضوع للقيادة

-أعدك.

فكر الدكتور فلاح، إننا في المديات الدنيا من واقع المتناقضات، كل شيء مبني على الكذب والمراوغة والتزوير، أية حياة نبني للأجيال القادمة.

شعر شاكر بامتنان عميق للدكتور فلاح، لقد قاتل من أجله بشجاعة وبكثير من الدهاء، بدأ مطر خفيف

تتجمع قطراته فوق العشب في حديقة الكلية وعلى أوراق أشجار الصفاف التي أصبحت اوراقه أكثر لمعاناً وغدا لونها الرصاصي المخضر بهيجاً، اشتد المطر ليصنع ستارة كبير خلف الشباك في غرفة الاساتذة، قال الدكتور فلاح أفضل ما يشاغل الشتاء الشاي، دخل أحد زملائه القدامى، في الانبار فقد ساقاً ويدا، سلم على الدكتور فلاح ثم التفت الى شاكر ، كان في يده السليمة ملفا، قال هذه ترجمة الدراسة التي طلبتها دكتور،فتحها واطلع على بعض أوراقها، شكره، لم يوافق علي طلب الجلوس قال عليه ان يذهب، التفت الى شاكر يسأل عن اخباره، عرض عليه أن يوصلنه في طريقه لأنه ذاهب الى بعقوبة، شكره، قال المطر يشتد ولن تجد تكسي ثم إن حي النصر على طريقي، ودّعا الدكتور فلاح.

حديث عن الحرب وعن داعش جرهما للحديث عن مستقبل العراق، قال زميله لقد فقدنا الحلم الصغير الجميل الذي كنا نتداوله عن المستقبل حينما بدأ غزو العراق، ألا تلاحظ اننا نتداول اليوم كابوسا ثلاثي الأبعاد، انه يحمل شحنة القلق الوجودي في لوحة مونك الحمراء، هنا ايضاً نحن سائرون الى الهاوية، الفرق في كابوس لوحة مونك ان الناس يسيرون برعب نحو الهاوية ، أما نحن فإننا نتشاطر على بعضنا، الجميع يسرق من الجميع، الجميع يستغل رحلة الرعب والهلع ليبتز الجميع،

كانوا يعدوننا بجنة أرضية بعد ان يسقطوا النظام، ولكن نكتشف انها جنة لهم فقط الأخرون يعيشون على حدودها حيث يحق لهم التمتع بالمشاهدة، لم يعترض شاكر ولكنه شعر بأن المطر اصبح أثقل والهواء في السيارة المقفلة النوافذاصبح خانقاً، فتح النافذة ليستقبل دفقة من المطر الذي دفعته الرياح، مسح وجهه وقال لزميله، لا أعتقد ان الأمور بهذا السوء، يجب أن تكون هناك نافذة ما للأمل، صحيح... ولكن هذا الامل ليس طائراً ضل طريقه وقد يدخل من نافذة منسية في الدار، الأمل صناعة فهل نحن قادرون! قال شاكر ولم لا، تذكر هولاكو... الزمن ايضاً يعاون من يصنع الأمل.

العابرون في شارع القناة يبدون ظلالاً متحركة بغموض قد يكشف في أية لحظة عن شيئ مثير غير قابل للتصديق، الشارع العريض تحتجز المياه من الرصيف الى الحديقة الوسطية، تمخر السيارات ببطئ في لجج صغيرة متلاحقة، قال زميله أفضل ان نتوقف عند (الكافتريا) على اليمين بانتظار توقف المطر.

دخلا صالة صغير دافئة، كان هناك بضعة أفراد يحتسون الشاي، الى الشباك كان شاب يسمع فتاة تائهة في نظراتها كلاماً رقيقاً، جلسا في وضع يسمح بمراقبة السيارة في الخارج، لم ينس زميله مداخلته التي بدأها تحت وطأة المطر، حسناً هل يمكن ان نعيش لنرى ما

ستكتشفه بغداد في سنينها القادمة.

قال شاكر: لن نحل هنا هذا اللغز.

طلب زميله قهوة تركي دون أن يسأل شاكر عما يرغب فيه، هز شاكر رأسه مستسلماً.

قال شاكر: سيارتك جميلة هل اشتريتها من المعارض؟

- لا استوردتها من الإمارات، أخي يعمل هناك وقد ساعدني، هل تفكر بشراء سيارة؟

- ربما لأني ساكون مضطراً للذهاب الى الجامعة يومياً، للمكتبة او للمحاضرات.

- يمكن ان أساعدك في ذلك.

- سأنهي بعض المسائل المعلقة وقد نلتقي الاسبوع القادم اذا لم يكن لديك مانع.

- حسناً، هذه بطاقة الزيارة وفيها الهاتف والعنوان والبريد الالكتروني.

توقف المطر، خرجا يخوضان في المجري الذي احتل الشارع ليصلا الى السيارة، مر باص ينقل تلاميذ صغار كانوا مندهشين من الصوت الذي يحدثه سير الباص في الماء فيصرخون بهستيرية ضاجة وهم يتقافزون فوق مقاعدهم، لوح لهم شاكر فتزاحموا يتدافعون الى زجاج النوافذ.

كانت أمه تقف كالعادة منتظرة وحين توقفت السيارة

عندها تراجعت الى الداخل، لم يقبل زميلة دعوة شاكر للدخول للاستراحة ليواصل رحلته الى بعقوبة.

البرد يتكاثف في الشوارع المفتوحة وهواء ثلجي يصفع وجوه بعض المارة الذين تلفعوا بكوفيات منقطة أو وضعوا على وجوههم أقنعة صوفية، فيما كانت مياه الامطار مسترخية في تمددها في الأزقة، لم يكن هناك من فرصة للاطفال ليلعبوا كرة القدم وينتهون بالمشاجرة حول البرشة والريال تتخلها شتائم بذيئة لرونالدو من جماعة ميسي ولميسي من جماعة رونالدو.

قالت امه – لقد شغلتني، شوارع بغداد غير آمنة، قلت انك ستعود من الجامعة الى البيت، لماذا تأخرت، أين قضيت كل هذا الوقت والمطر أغرقنا؟

– في الداخل عليّ ان اتدفأ اولاً لأجيب كل هذه الاسئلة.

اعتذرت أمه.

كان أبوه يغفوا على كرسيه متمتعاً بالدفئ الذي تنشرة مدفأة علاء الدين، التلفاز يعرض أغنية غجرية وحول المغني نساء بملابس سوداء طويلة يطوحن برؤوسهن مشكلات بالخصلات الطويلة السوداء من شعرهن دوائر يقطعها ضربة القفل من الطبال فيفتعلن ابتسامات بلهاء وهن يهززن أكتافهن ليبرزن حركة ارتجاج صدورهن، غيّر المحطة وهو يجلس فاركا كفيه فوق وهج نار المدفأة

الأزرق.

قالت أمه – جاءت شيماء تسأل عن نتائج المنافسة، قالت بأنها رأتك تخرج مع أحد زملائك ولم يتسنى لها الحديث معك، هل نذهب الليلة الى بيت مجمان؟

لقد اعتاد على إسلوب أمه في الحديث، تطرح جملة من الأسئلة دون أن تنتظر ألإجابة، حتى لو تجاوز تلك الأسئلة وفتح موضوعاً جدياً لم تكن تهتم، تنصت بهدوء.

قال: الخميس نذهب اليهم.

قالت يعني غداً، هل من نتيجة في الجامعة.

– نعم وستصدر القائمة الاحد القادم.

– مبروك.

*****

دفعني البرد الذي حلّ في بغداد الى أن احكم الغطاء الصوفي الذي اشترته أمي من سوق السماوة حين ذهبت لعزاء أخيها، كانت الألوان الداكنة معادلاً موضوعياً للبرد الذي يملأ دنيا المدينة التي لم تعد تصحو على صوت الانفجارات منذ أكثر من شهر، شعرت وأنا أتحسس مكان ساقي الهاربة في الساحل الأيمن في الموصل اني ربما ساهمت في هذا الهدوء، هكذا يبدأ التاريخ في تأكيد ذاته المتحركة، الهدوء النسبي حلّ في بغداد بعد تطهير مدينة الموصل، وغداً الخميس مساء سيبدأ تاريخاً بمسار فرعي، لي أنا شاكر مهدي، وسيدأ أيضاً مسار فرعي في

التاريخ بالنسبة لي يوم الأحد، في المجرى العام سيظل التاريخ يقاس بأحداثه العامة ولكن بالنسبة للافراد وأنا منهم يقاس بمساراته الفرعية.

مع تشبع الغرفة بدفئ لذيذ سحبت الغطاء عن رأسي وتسلل نعاس بدأ أولاً في تراخي عيني وثقل في رأسي بدأ خفيفا... وغفوت، كانت أحلامي طيوراً ملونة فوق نخلتنا ووجه أمي ينضح فرحاً وهي تزغرد في مدخل البيت وشيماء بفستان أبيض طويل، كانت كأنها ملاك يشع بهاء، وأنا أقف أتطلع اليها غارقاً في عمق الزرقة في عينيها وكأني أسبح في بحر تتكسر موجاته الرقيقة تحت ضربات يدي.. حينما استيقظت شعرت بتوتر كأني كنت تعباً من السباحة وخائفاً من البحر الذي كان أفقاً مفتوحاً يأخذني بعيداً عن عيون شيماء، دخلت أمي الغرفة تدعوني للافطار وتذكرني ان اليوم الخميس، قلت لها أعرف، في هذا المساء سيفتح لي التاريخ مساراً فرعياً، كانت أمي قد وضعت كمية كبيرة من القيمر والمربي وكأساً كبيراً من الشاي، أعرف نوايا أمي، قلت لها سنذهب للخطبة، قالت ولو، عليك أن تستعد، جهد الخطبة لا يقل متاعباً عن صباح العرس! ضربتني على كتفي بحنان.

بغداد تعيش طقساً متقلباً وهو منذ يوم أمس شديد البرودة والريح لا تنفك تصدر صفيراً مبحوحاً متقطعاً،

نخلتنا تتجاوب مع الريح فتهز سعفها الذي يصدر حفيفاً يتماهى مع صوت الريح.

قال مجمان - كما وعدت سألت شيماء وهي موافقة ولكنها تريد إيضاحاً لبعض النقاط.

انزعجت امي التي كانت تظن ان شيماء ستوافق دون تساؤل!

قلت: لا بأس.

قالت شيماء: ان أكمل دراستي.

قلت: بالطبع.

قالت: لا أعني البكالوريوس في السنة القادمة وإنما الدراسات العليا.

قلت: بالطبع ايضاً.

قالت: وان أعمل في التدريس.

قلت وانا أحاول ان أبدو جاداً - لا أضمن لك ذلك فقد تتغير الظروف.

قالت: ان أحاول.

قلت موافق وسأحاول معك

قال مجمان: البيت لدينا واسع ويمكن ان نخصص لكما الطابق الثاني.

قالت أمي: لا.

كانت حاسمة في رفضها.

تابعت – نحن ايضاً يمكن ان نبني لهما طابقاً ثانياً.

قلت بيتكم قريب فنحن نسكن بذات الشارع تقريباً.

قرأنا الفاتحة وقررنا ان نذهب سوية الى الصائغ في حي النصر لشراء حلقتين ونيشان مناسب.

قلت لشيماء ونحن في الطريق، لقد افتتحنا سوية مساراً للتاريخ، قالت ماذا تعني، قلت لا شيء أنا سعيد، أمسكت بيدي.

كنا نخرج من محل الصياغة حينما سمعت ابو برنيطة يصيح – أين انت يارجل، لدي ثلاثة اخبار لك، الاول من الشيخ صالح يريد ان يراك فوراً والثاني من صديقك في السيارة البيضاء يريدك أيضاً والثالث من عادل الاستراتيجي يخبرك ان هناك تظاهرة حاشدة غداً في ساحة التحرير، اللهم اشهد أني بلغت!

توقفت شيماء تنظر إلي بتساؤل، قلت كل ما قاله ليس فيه أية اهمية فانا لن اذهب لأحد كما أني أشك في أن أكون في التظاهرة،

تذكرت السيارة التي حدثني عنها زميلي المسافر الى بعقوبة، قلت لها سأشتري سيارة مما يصنع لذوي الاحتياجات الخاصة، هناك اليابانية او الكورية، قالت ما حاجتها، قلت سيكون دوامنا مشترك في الكلية وبعد الكلية ستكون لدينا مشاوير لن تنتهي بالعرس، احمّر وجهها وضغطت على يدي.

كنت قد تركت شيماء تذهب الى صفها وذهبت الى الإدارة، استقبلني موظف قصير القامة على أنفه الكبير دملة حمراء، كانت عيناه مغرورقتان بالدمع على نحو دائم وكأنه يحمل كل ما في بغداد من هموم، قال مبروك... تم إضافة اسمك الى المقبولين... كم مكافأتي! اعطيته عشرة آلاف، انتظرت الدكتور فلاح لينهي محاضرته، قال الخميس القادم سيكون أول لقاء مع طلبة الماجستير لهذا العام في الساعة الرابعة لشرح الضوابط العامة في إعداد البحوث، كان جاداً كعادته، انتظرت شيماء، قالت الفرحة في عينيك... مبروك، قلت نعم... سنباشر الخميس القادم.

حين وصلنا البيت، لم تنتظر أمي حتى أكمل حديثي فقد بدأت تزغرد على نحو متواصل.

قبّلت رأس أبي الذي بدا يطفخ على وجهه البشر، سماء بغداد لامعة تحت أشعة الشمس المتراجعة، كانت خيوط الضوء بلورية تغرق في المياه المتجمعة في الشوارع، تضيع في المياه العكرة التي حولت الاتربة المتراكمة الى سائل لزج.

في الساعة العا شرة من صباح الجمعة سمعت امي تقول لأبي برنيطه... إنه في الداخل... يمكنك ان تدخل فهو مع عمك أبوغازي، قال بأنه جاء ليصحبني الى تظاهرة الجمعة ضد الفساد وسوء الخدمات، نحن نختبر

التحالف فالتظاهرة ستكون مليونية، قلت المهم ان تكون متماسكة، قال ستكون الشعارات موحدة.

جموع غفيرة تسد المداخل الى ساحة التحرير، يمكن فرز المجموعات المشتركة، شعارات مصاغة بلغة مختلفة تكشف عن طبيعة توجه حامليها وملابس متباينة تحدد هوية المشتركين، بين الاثنين شباب يصفق ويغني اهازيج تسب الحكومة والبرلمان والاحزاب وكل ما يتحرك في الواجهة السياسية دون تحديد لبديل مقبول.

قلت لأبي برنيطة - حسناً لقد شاركنا بالتظاهرة، عليّ ان أعود فمساء انت مدعو لحفل عقد القران، لا تنسى تبلّغ عادل وخليف وجماعتك في المركز الثقافي.

كانت حفلة بسيطة كما رغبت شيماء رغم ان أمي دعت مجموعة من نسوة حي النصر، بعد الحفلة خرجت وشيماء والعم مجمان بسيارتي لنقوم بجولة في بغداد، قالت شيماء ستتعلم السيارة السباحة، قال مجمان لنذهب الى المنصور، في البيت كانت أمي ماتزال امام إبريق الشاي تحدث أبي عن الحفلة، كان أبي يبتسم برضا، ليلتها دخلت فراشي وانا أخطط لدمج المسارين في طريق واحد، كنت أشعر بسعادة غامرة وغفرت لساقي هروبها في حي الزنجيلي، كان من مكاسب حفلة عقد القران صورة كبيرة لشيماء وضعتها في إطار ذهبي، كان وجهها بابتسامته المضيئة يطالعني وأنا اصحو صباحا،

أصحبها الى الجامعة، تذهب هي الى درسها وادخل أنا الى المكتبة، حينما ارفع رأسي وأراها قادمة أتخيلها بفستان العرس، نجلس سوية على (الكوشة) وأنا أمسك بيدها.